الكتاب الأول ١ برنامج أصول العلم

شرح خلاصة تعظيم العلم

صَنَّفَ الكِتَابَ وأَمْلَى شَرْحَهُ
فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

شرح

خلاصة تعظيم العلم

الكتاب الأول

١

برنامج أصول العلم

شرح خلاصة تعظيم العلم

صَنَّفَ الكِتَابَ وأَمْلَى شَرْحَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي جعل للعلم أصولًا، وسهَّل بها إليه وصولًا، وأشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وسلَّم ما بُيِّنَت أصول العلوم، وعلى آله وصحبه ما أُبرِز المنطوق منها والمفهوم.

أمَّا بعدُ:

فهَذَا شرح الكتاب الأوَّل من برنامج «أصول العلم» في سنته الرَّابعة، ستٍّ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ وسبعٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ، وهو كتاب «خلاصة تعظيم العلم»، لمصنِّفه صالح بنِ عبد الله بنِ حمدٍ العُصيميِّ.

قال المصنف وفَّقه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ المُعَظَّمِ بِالتَّوْحِيدِ، وَصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ المَخْصُوصِ بِأَجَلِّ المَزِيدِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أُولِي الفَضْلِ وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذِهِ مِنْ كِتَابِي «تَعْظِيمُ العِلْمِ» خُلَاصَةُ اللَّفْظِ، أُعِدَّتْ بِالْتِقَاطِهَا لِمَقْصَدِ الحِفْظِ، فَاسْتُخْرِجَ مِنْهُ لِلْمَنْفَعَةِ المَذْكُورَةِ اللُّبَابُ، وَجُعِلَ فِيهِ الأُنْمُوذَجُ مِنْ كُلِّ بَابٍ؛ لِيَكُونَ فِي نُفُوسِ الطَّلَبَةِ شَمْسَ النَّهَارِ، وَيَتَرَشَّحُوا بَعْدَهُ إِلَى العَمَلِ وَالادِّكَارِ.

فَأَسْأَلُ اللهَ لِي وَلَهُمْ لُزُومَ مَعَاقِدِ التَّعْظِيمِ، وَالفَوْزَ بِجَوَامِعِ فَضْلِهِ العَظِيمِ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ٱبتدأ المصنِّف وفَّقه الله كتابه بالبسملة؛ ٱتِّباعًا للمنقول في السُّنَّة النَّبويَّة في مراسلات النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ أردفها بالحمدلة، ثمَّ ثلَّث بالصَّلاة والسَّلام على محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه.

ثمَّ ذكر أنَّ هَٰذِهِ النُّبذة - وهي كتاب «خلاصة تعظيم العلم» - هي من كتاب له آخر ٱسمه «تعظيم العلم» (خُلَاصَةُ اللَّفْظِ)؛ أَيْ: نَقَاوَتُهُ؛ فَخُلَاصَةُ الشَّيْءِ: هِيَ نَقَاوَةُ الشَّيء، وَيُقَالُ: نَقَاوَةٌ - بِفَتْحِ النُّونِ -، وَنُقَايَةٌ - بِضَمِّهَا -، وَلَا يَصِحُّ النِّقَايَةُ - بِكَسْرِهَا -؛ فمِنَ اللَّحن المشهور قولهم: (نِقاية كذا وكذا)، والصَّواب: (نُقاية كذا وكذا).

ثمَّ ذكر أنَّ الحامل له على جَعْل هَٰذِهِ الخلاصة أنَّه أعدها (بِالْتِقَاطِهَا لِمَقْصَدِ الحِفْظِ)؛ لأنَّ ما

أُريد حِفْظُه حَسُن تقليل لفظِه، فاللَّفظ يُقَلَّلُ ليُحفَظ، ويُكَثَّرُ ليُفهَم.

ثمَّ بيَّن السَّبيل الَّتي أدَّت إلى جَعْل هَٰذِهِ الخلاصة بقوله: (فَاسْتُخْرِجَ مِنْهُ لِلْمَنْفَعَةِ الْمَذْكُورَةِ اللُّبَابُ، وَجُعِلَ فِيهِ الأُنْمُوذَجُ مِنْ كُلِّ بَابٍ)، **فمدار هَٰذِهِ الخلاصة في صَنعتها على أمرين:**

أحدهما: أنَّها ٱحتوت لُباب كتاب «تعظيم العلم»، **ولُباب الشَّيء**: خالِصُه.

والآخر: أنَّه جُعِل فيه الأُنْمُوذَجُ مِنْ كُلِّ بَابٍ؛ والأُنْمُوذَجُ هُوَ: المِثَالُ المُحْتَذَى، ؛ فجُعِل في كلِّ بابٍ مثالٌ يُحتذَى به يدلُّ على باقيه، وَالأُنْمُوذَجُ - بِهَمْزٍ فِي أَوَّلِهِ -، وَيُقَالُ أَيْضًا: النُّمُوذَجُ - بِلَا هَمْزٍ.

وٱختُلِف في عربيَّته على قولين:

أحدهما: أنَّه عربيٌّ صريحٌ.

والآخر: أنَّه أعجميٌّ عُرِّب فصار من الفصيح.

ثمَّ ذكر الباعث له على وضع هَٰذِهِ الخلاصة فقال: (لِيَكُونَ فِي نُفُوسِ الطَّلَبَةِ شَمْسَ النَّهَارِ، وَيَتَرَشَّحُوا بَعْدَهُ إِلَى العَمَلِ وَالادِّكَارِ)؛ **فمنفعة ٱختصاره ترجع إلى أمرين:**

أحدهما: بأن يكون واضحًا بيِّنًا كشمس النَّهار، وبها يُضرَب المثل في الوضوح والبيان.

والآخر: الترشُّح بعده إلى العمل والادِّكار- أي التَّهيُّؤ له -، بأن تُرَقَّى النُّفوس بعد التلقِّي إلى العمل والادِّكار.

والادِّكار هو: الاتِّعاظ وَالاعْتِبَار، أَصْلُهُ: الاذْدِكَارُ - بِذَالٍ ثُمَّ دَالٍ -، ثُم أُبْدِلَتِ الذَّالُ دَالًا وَأُدْغِمَتْ فِي الأُخْرَىٰ، فَصَارَتْ (الادِّكَارُ).

ثمَّ ختم المصنِّف ديباجة كتابه بدعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له ولِمَنْ تلَقَّىٰ كتابه من الطَّلبة بـ(لُزُومِ مَعَاقِدِ التَّعْظِيمِ، وَالفَوْزِ بِجَوَامِعِ فَضْلِهِ العَظِيمِ) - جعلنا الله وإيَّاكم مِمَنْ يُعَظِّم العلم ويفوز من الله بفضله العظيم.

قال المصنف وفَّقه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ عَدَدَ مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ حَظَّ العَبْدِ مِنَ العِلْمِ مَوْقُوفٌ عَلَى حَظِّ قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَمَنِ ٱمْتَلَأَ قَلْبُهُ بِتَعْظِيمِ العِلْمِ وَإِجْلَالِهِ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لَهُ، وَبِقَدْرِ نُقْصَانِ هَيْبَةِ العِلْمِ فِي القَلْبِ، يَنْقُصُ حَظُّ العَبْدِ مِنْهُ، حَتَّى يَكُونَ مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ العِلْمِ.

فَمَنْ عَظَّمَ العِلْمَ لَاحَتْ أَنْوَارُهُ عَلَيْهِ، وَوَفَدَتْ رُسُلُ فُنُونِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِهِمَّتِهِ غَايَةٌ إِلَّا تَلَقِّيهِ، وَلَا لِنَفْسِهِ لَذَّةٌ إِلَّا الفِكْرُ فِيهِ، وَكَأَنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ الدَّارَمِيَّ الحَافِظَ لَمَحَ هَٰذَا المَعْنَى، فَخَتَمَ (كِتَابَ العِلْمِ) من سُنَنِهِ المُسَمَّاةِ بِـ«المُسْنِدُ الْجَامِعُ» بِبَابٍ فِي إِعْظَامِ العِلْمِ.

وَأَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى الوُصُولِ إِلَى إِعْظَامِ العِلْمِ وَإِجْلَالِهِ: مَعْرِفَةُ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِهِ، وَهِيَ الأُصُولُ الجَامِعَةُ، المُحَقِّقَةُ لِعَظَمَةِ العِلْمِ فِي القَلْبِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ مُجِلًّا لَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَلِهَوَاهُ أَطَاعَ، فَلَا يَلُومَنَّ - إِنْ فَتَرَ عَنْهُ - إِلَّا نَفْسَهُ، (يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ)، **وَمَنْ لَا يُكْرِمُ العِلْمَ لَا يُكْرِمُهُ العِلْمُ.**

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف مقدِّمةً ثانيةً بعد المقدِّمة الأولى.

والفرق بينهما: أنَّ تلك المقدمة السَّابقة هي مقدمة كتاب «خلاصة تعظيم العلم»، وهَٰذِهِ المقدِّمة الثَّانية هي مقدِّمة «تعظيم العلم»، وٱختصرها على النَّحو الَّذي جرى عليه في كتابه؛ فهي مُختصَر خطبته كسائر ما بقي من الكتاب؛ فإنَّه موضوعٌ على وجهٍ مختصرٍ.

وزاد في هَٰذِهِ المقدِّمة فيما ٱستفتح به على سابقتها: ذِكْر الشَّهادتين؛ ففيها زيادةٌ على مقدِّمة «الخلاصة» ذِكْرَ الشَّهادتين، وهما: الشَّهادة لله بالوحدانيَّة، ولمحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرِّسالة.

ثمَّ ذكر بعدُ أنَّ (حَظَّ العَبْدِ مِنَ العِلْمِ) – وهو: نصيبُه، فالحظُّ هو: النَّصيب – (مَوْقُوفٌ عَلَى حَظِّ قَلْبِهِ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ)؛ أي: مُرْتَهِنٌ بقدر ما يكون في قلبه من تعظيم العلم وإجلاله؛ فالعلم الَّذي يحوزه العبد يكون ملائمًا للحال الَّتي يكون عليها قلبُه من تعظيم العلم وإجلالِه، فإنَّ القلوب تتفاوت حظوظها فيما تحوزه من العلم باعتبار ٱختلاف حظوظها من تعظيم العلم وإجلاله، وهو الَّذي ذكره في قوله: (فَمَنِ ٱمْتَلَأَ قَلْبُهُ بِتَعْظِيمِ العِلْمِ وَإِجْلَالِهِ صَلَحَ أَنْ يَكُونَ مَحَلًّا لَهُ، وَبِقَدْرِ نُقْصَانِ هَيْبَةِ العِلْمِ فِي القَلْبِ، يَنْقُصُ حَظُّ العَبْدِ مِنْهُ، حَتَّى يَكُونَ مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ العِلْمِ).

والعلم المراد هنا هو: العلم النَّافع الَّذي يورِث العمل، وتتجلَّى أنوارُه على صاحبه فهمًا، وإصلاحًا، ودعوةً، وإرشادًا.

فلا يُراد بالعلم مجرَّدُ جمْعِ المعلومات، فإنَّك ترى من الخلق مَنْ لا يقيم تعظيم العلم وإجلاله في قلبه، وتراه حائزًا شيئًا من العلم، لكِنَّ العلم الَّذي حازَه موقوفٌ على المعلومات فقط؛ فلا تجد لهَٰذَا العلم أثرًا في عمله، ولا في دعوته، ولا في إصلاحه، ولا إرشاده، ولا تُفتَح له مُغلقات العلوم، ومشكلات الفهوم، فهو مجرد جمَّاعٍ للمعلومات.

والعلم الَّذي ينفع العبد هو الَّذي يدعوه إلى العمل ويحيطُ العبدَ هيبةً، وفهمًا، وإدراكًا، وإصلاحًا، وإرشادًا، وبه يتباين الخلق.

ثمَّ قال مُبيِّنا أثر تعظيم العلم على القلب: (فَمَنْ عَظَّمَ العِلْمَ لَاحَتْ أَنْوَارُهُ عَلَيْهِ)؛ أي: ظهرت أنوارُه عليه، (وَوَفَدَتْ رُسُلُ فُنُونِهِ إِلَيْهِ)؛ أي: قدِمت رسُل فنونه إليه، فصار نور العلم عليه، وأصاب حظًّا من فهْمِ فنون العلم والمشاركة فيها.

قال: (وَلَمْ يَكُنْ لِهِمَّتِهِ غَايَةٌ إِلَّا تَلَقِّيهِ، وَلَا لِنَفْسِهِ لَذَّةٌ إِلَّا الفِكْرُ فِيهِ)، فمتى ٱستوى في القلب تعظيم العلم صارت هِمَّة طالبه تَتَعلَّى في جمْعه، ووجدَ لذَّةً يأنس فيها بالعلم تُغنيه عن كلِّ لذَّةٍ.

ثمَّ ذكر أنَّ أحد الحُفَّاظ - وهو أبو محمَّدٍ الدَّارميُّ، وٱسمُه: عبد الله بن عبد الرَّحْمَنِ السَّمرقنديُّ الحافظ صاحب «سنن الدَّارميِّ» وغيرها - (لَمَحَ هَٰذَا المَعْنَى، فَخَتَمَ (كِتَابَ العِلْمِ) من سُنَنِهِ المُسَمَّاةِ بِـ«المُسْنِدُ الْجَامِعُ» بِبَابٍ فِي إِعْظَامِ العِلْمِ)، فإنه ٱفتتح بقوله: (كتاب العلم)، ثمَّ أورد فيه أبوابًا، جعلَ في كلِّ بابٍ أحاديثَ وآثارًا، ثمَّ ختم تلك الأبواب ببابٍ في إعظام العلم؛ للإنباه إلى أنَّ ما تقدَّم ذِكْرُه من أبواب العلم في أنواعه وأدبه وتحصيله مردُّها جميعًا إلى وجود هَٰذَا المعنى، وهو: إعظام العلم في القلب.

فإذا وَجَد العبدُ في قلبه إعظام العلم وإجلاله حصَّل الخير فيما يطلبه من العلم، وإذا فُقِد هَٰذَا المعنى من قلبه لم ينلِ الخير العظيم في العلم.

ثمَّ بيَّن المصنِّف - وفَّقه الله - السَّبيل الموصلة إلى حيازة القلبِ تعظيمَ العلم وإجلالَه؛ فقال: (وَأَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى الوُصُولِ إِلَى إِعْظَامِ العِلْمِ وَإِجْلَالِهِ: مَعْرِفَةُ مَعَاقِدِ تَعْظِيمِهِ)؛ فأَجلُّ شيء يعينك على أن تكون مُعظِّمًا للعلم مُجِلًّا له هو: معرفتك بمعاقد تعظيم العلم.

والمراد بـ(معاقد تعظيم العلم) المذكور في قوله: (وَهِيَ الأُصُولُ الجَامِعَةُ، المُحَقِّقَةُ لِعَظَمَةِ العِلْمِ فِي القَلْبِ)، فهي أصولٌ كلِّيَّةٌ في مواردَ متعدِّدةٍ، يتحقَّق بها تعظيم العلم في القلب إذا ٱستعملها العبدُ.

فمثلًا: أوَّلُ تلك المعاقد: تطهير وِعاء العلم، فإذا ٱعتنيتَ بتطهير وعاء العلم - وهو القلب - رميتَ بسهمٍ في تعظيمه، فإذا ٱنتقلت إلى معقدٍ آخرٍ رميتَ سهمًا ثانيًا، فإذا ٱنتقلت إلى معقدٍ ثالثٍ رميتَ سهمًا ثالثًا، و**على كثرة السِّهام تكون كثرة الصَّيد**، فإنَّ الصَّائد الَّذي يخرج ومعه من آلة الصَّيد سهامٌ كثيرةٌ أحرى بأن يُدرِك صيدًا كثيرًا من صائدٍ لا يكون معه إلَّا سهمٌ أو سهمان، فضلًا عن أن يكون قد خرج بيديه يرجو الصَّيد ولا سهمَ له.

فكذَٰلِكَ الملتمسون للعلم؛ لا يحوزون العلم بشيءٍ أكثر من أن يكون مُعظِّمين له في قلوبهم، فإنهم إذا عظَّموا العلم في قلوبهم جمعوا عُدة صالحةً لقبول نفوسهم له، وإذا فُقِدت هَٰذِهِ العُدَّة فإن العلم يُفقَد منهم.

وكما سلف: فليس المراد من العلم جمْع المعلومات، لَـٰكِنَّ المراد هو: العلم النَّافع الَّذي تظهر بركته على العبد عملًا، وهدايةً، ودعوةً، وإرشادًا، وإصلاحًا؛ فإنَّك ترى من النَّاس مَنْ يجمع معلوماتٍ، فهو حائزٌ للعلم، لَـٰكِنَّ هَٰذا العلم الَّذي عنده لا حقيقة له؛ لأنَّه يُفقَد منه في أحوالِه، فعمله على خلاف العلم، ولا أثر للعلم الَّذي معه في دعوة النَّاس ولا تعليمهم، ولا نَشْر الخير، ولا السَّعي في هداية الخلق إلى الصِّراط المستقيم.

ثمَّ قال بعدُ: (فَمَنْ أَخَذَ بِهَا) - أي: بمعاقد تعظيم العلم - (كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ مُجِلًّا لَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا) - أي: بفقدانها منه - (فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ)؛ فمآل الخيبة والخسار لا ترجع على العلم، فالعلم يبقى عزيزًا، فحقيقة العلم هي دين الإسلام، ودين الإسلام باقٍ حتَّى يرث الله الأرض ومَنْ عليها، ولَـٰكِنَّ الَّذي يعود عليه الأثر الوخيم لعدم تعظيم العلم هو السَّاعي في تلقِّيه.

قال: (وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَهَوَاهُ أَطَاعَ)؛ لأنَّ العبد لا يخرج عن ٱمتثال المأمور بشيءٍ أشدَّ عليه من الهوى، فإنَّ الهوى يمنع النَّفس من حمْلها على المأمورات، فإذا ٱعتبرتَ جملةً من هَٰذِهِ من المعاقد المذكورة في هَٰذا الكتاب وجدتَ الهوى ينازع العبد فيها.

فمثلًا: من المعاقد المذكورة فيه (**سلوك الجادة الموصلة إليه**)؛ أي: سلوك الطَّريق الَّذي يوصِل إلى العلم.

وستجد في نفسك وفي النَّاس ٱجتذاب الهوى للخلق بإخراجهم عن تلك الجادَّة؛ فسيأتي في نعت تلك الجادَّة أنَّها تكون بتحصيل أصول العلم حِفظًا وفهمًا، وأنتَ تسمع اليوم مَنْ يقول: إنَّه لا حاجة إلى الحفظ في العلم؛ فهٰذا له نصيبٌ من قول المصنِّف: (فَلِنَفْسِهِ أَضَاعَ، وَلِهَوَاهُ أَطَاعَ)؛ لأنَّ كلَّ مقتبسٍ علمَ الشَّريعة من عهد الصَّحابة فمَنْ بعدهم لا ينازعون في قيام العلم على الحِفظ، وقد دلَّ القرآن والسُّنَّة والإجماع والعقل والفطرة على أنَّه لا علم إلَّا بحفظٍ، حتَّى قال شيخ شيوخنا محمَّد بن عبد العزيز بن مانعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إرشاد الطُّلَّاب»: «لا شكَّ عند العقلاء أنَّ العلمَ لا يُنال إلَّا بحفظٍ». ٱنتهى كلامه، فإذا ٱعتبرتَ هَٰذِهِ الحال وجدتَ لها حظًّا من قوْل المصنِّف: (وَلِهَوَاهُ أَطَاعَ).

ثمَّ قال بعدُ: (فَلَا يَلُومَنَّ - إِنْ فَتَرَ عَنْهُ -) - أي: ٱنقطع عنه، فالفتور: الانقطاع - [1] (إِلَّا نَفْسَهُ).

ثمَّ قال بعدُ: ((يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفَخَ))؛ وهو مثلٌ يُضرَب لِمَنْ سعى في إهلاك نفسه، وفرَّط في حِفظها، وأصله أنَّ رجلًا أراد أن يقطع نهرًا، وكان لا يُحسِن السِّباحة، ومعه قِربَةٌ، فنفخها حتَّى ٱمتلأت هواءً، ثمَّ ٱحتضنها، وألقى بنفسه في النَّهر يرجو أن يقطعه بهٰذِهِ الحال،

---

(١) ومن اللَّحن الشَّائع عند النَّاس قولُهم: (في الفترة من كذا إلى كذا)، فإنَّ هَٰذَا معناه: (في الانقطاع من كذا إلى كذا)، فمثلًا يقولون: (سيُعقَد درسٌ علميٌّ من الفترة بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء)، فمعناه: (من الانقطاع من بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء)، والصَّواب أن يقال: (في المدَّة من بعد صلاة العصر إلى بعد صلاة العشاء)؛ فأصل هَٰذه المادَّة عن أهل العربيَّة هي: (الانقطاع)، ومنه: الفتور؛ وهو: تكاسل النَّفس عن العمل، وثُقلها عليه.

فلما توسَّط النَّهر تسرَّب هواؤها فغَرِق ولم يستطع أن يواصل سيره، فضُرِب هَٰذَا المثل فيه (يداك أوكتا وفوك نفخ)، ومعنى: (يداك أوكتا)؛ أَيْ: هُمَا اللَّتَانِ شَدَّتَا حَبْلَ هٰذِهِ القِرْبَة.

قال: (**وَمَنْ لَا يُكْرِمُ العِلْمَ لَا يُكْرِمُهُ العِلْمُ**)؛ أي: مَنْ لا يقوم بحقِّ العلم من الإكرام فإنَّ العلم لا يُكرمه، ومَنْ لم يقم بالعلم لم يقمِ العلمُ به، ومَنْ أكرم العلم وصانَه وعظَّمه فإنَّ العلم يرفعه، وفي هَٰذَا أشياءُ كثيرةٌ لا تنقضي النَّفس منها عجَبًا.

فمن أَخْبَارِ بَعْضِ مَنْ سَبَقَ: أَنَّهُ رُئِيَ فِي المَنَامِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟، فَقَالَ: غَفَرَ اللهُ لِي، فَقِيلَ: بِمَ؟، فَقَالَ: بِأَنِّي وَجَدْتُ وَرَقَةً مِنْ كِتَابٍ فِي العِلْمِ عَلَى الأَرْضِ فَرَفَعْتُهَا؛ فَغَفَرَ اللهُ لِي. وفي هَٰذَا المعنى آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الأَوَّلُ
تَطْهِيرُ وِعَاءِ العِلْمِ

وَهُوَ القَلْبُ؛ وَبِحَسَبِ طَهَارَةِ القَلْبِ يَدْخُلُهُ العِلْمُ، وَإِذَا ٱزْدَادَتْ طَهَارَتُهُ ٱزْدَادَتْ قَابِلِيَّتُهُ لِلْعِلْمِ.

فَمَنْ أَرَادَ حِيَازَةَ العِلْمِ فَلْيُزَيِّنْ بَاطِنَهُ وَيُطَهِّرْ قَلْبَهُ مِنْ نَجَاسَتِهِ؛ **فَالعِلْمُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقَلْبِ النَّظِيفِ.**

وَطَهَارَةُ القَلْبِ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشُّبُهَاتِ.

وَالآخَرُ: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشَّهَوَاتِ.

وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَحِي مِنْ نَظَرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ إِلَى وَسَخِ ثَوْبِكَ، فَاسْتَحِ مِنْ نَظَرِ اللهِ إِلَى قَلْبِكَ، وَفِيهِ إِحَنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا.

فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».

مَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ فِيهِ العِلْمُ حَلَّ، وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ مِنْهُ نَجَاسَتَهُ وَدَعَهُ العِلْمُ وَٱرْتَحَلْ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ».

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

لما بيَّن المصنِّف وفَّقه الله أنَّ نيلَ العلم موقوف على تعظيمه، وأنَّ تعظيمه يُدرَك بمعرفة معاقد التَّعظيم؛ شرع يبيِّن تلك المعاقد واحدًا واحدًا، وابتدأها بالمعقد الأوَّل، وهو: (**تطهير وِعاء العلم**)، فإنَّ كلَّ شيءٍ له وِعاءٌ يُجعَل فيه، ووِعاء العلم: القلب، فما يُدرَك من العلم بالحفظ والفهم والنَظر والتَّأمُّل والبحث مردُّه أجمع إلى القلب.

ومنزلة العلم من القلب على قدر ما يكون له من الطَّهارة؛ كما قال: (وَبِحَسَبِ طَهَارَةِ القَلْبِ يَدْخُلُهُ العِلْمُ، وَإِذَا ٱزْدَادَتْ طَهَارَتُهُ ٱزْدَادَتْ قَابِلِيَّتُهُ لِلْعِلْمِ)؛ فالقلب الصَّالح لاستقبال العلم يدخله العلم، والقلب الَّذي لا يصلح للعلم لا يدخله العلم، والَّذي يكون مخلوطًا بالصَّلاح والفساد يكون له حظٌّ من العلم بحسب ما عنده من الصَّلاح، ويفوته حظٌّ من العلم بقدر ما عنده من الفساد.

ثمَّ قال: (فَمَنْ أَرَادَ حِيَازَةَ العِلْمِ) - أي: نيْله وجَمْعه - (فَلْيُزَيِّنْ بَاطِنَهُ وَيُطَهِّرْ قَلْبَهُ مِنْ نَجَاسَتِهِ؛ **فَالعِلْمُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقَلْبِ النَّظِيفِ**)، والنَّاس اعتادوا أن يحفظوا الجواهر النَّفيسة عندهم - كالذَّهب والفضَّة والعقيق والألماس - في أوعيةٍ صالحةٍ لحِفظها، والعلم أشرف من هَٰذِهِ الجواهر؛ لأنَّ منفعة العلم تبقى في الحياة وبعد الممات، وأمَّا هَٰذِهِ الجواهر فغاية ما يُدرَك لها من النَّفع إن وُجد وسلمت من مضرَّة العبد يكون في حال الحياة فقط، فإذا كانت هَٰذِهِ الأعيان تُحفَظ فيما يصلُح لها؛ فالعلم لا يصلُح حِفظه، وكَنزه، وجَمْعه = إلَّا في وعاءٍ صالحٍ له، وهو: القلب النَّظيف.

ثمَّ بيَّن ما تُدرَك به طهارة القلب فقال: (وَطَهَارَةُ القَلْبِ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشُّبُهَاتِ. وَالآخَرُ: طَهَارَتُهُ مِنْ نَجَاسَةِ الشَّهَوَاتِ)، **فإنَّ النَّجاسات الَّتي تهجم على القلب فتُلَطِّخه** - وهي: أمراض القلوب - **ترجع إلى هَٰذين النَّوعين:**

فأحدهما: نجاسة الشَّهوة.

والآخر: نجاسة الشُّبهة.

ولا يكون القلب طاهرًا حتَّى تُرفَع هاتان النَّجاستان منه.

ثمَّ قال: (وَإِذَا كُنْتَ تَسْتَحِي مِنْ نَظَرِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ إِلَى وَسَخِ ثَوْبِكَ) - أي: ما يكون من القذر الظَّاهر على ثوبك الَّذي تلبسُه -؛ فأولى لك أن تجيب إلى ما دعاك إليه بقوله: (فَاسْتَحِ مِنْ نَظَرِ اللهِ إِلَى قَلْبِكَ، وَفِيهِ إِحَنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا)؛ لأنَّ مُنتهى نظر النَّاس منك إلى ظاهرك، وأمَّا نظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إليك فإنَّه لا يقتصر على الاطِّلاع على ظاهرك، بل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اطِّلاعٌ كاملٌ عليك ظاهرًا وباطنًا، فإذا كنتَ إذا أردتَ أن تخالط النَّاس في مجامعهم وجوامعهم حسَّنتَ هندامكَ وطهَّرتَ ثوبك وبدنَكَ؛ فأدعى أن يكون هَٰذَا حال معاملتك مع ربِّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في باطنك، بأن يكون قلبُك طاهرًا، فتستحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينظر إلى قلبك متَّسخًا (فِيهِ إِحَنٌ وَبَلَايَا، وَذُنُوبٌ وَخَطَايَا).

ثمَّ ذكر حديث (أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»)؛ وفيه **أنَّ نَظَرَ الله من العبد له موقعان**:

أحدهما: نظرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى قلبه.

والآخر: نظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى عمله.

فالمنظور إليه من أحدنا من الله عَزَّوَجَلَّ يرجع إلى قلبه وعمله؛ فيحتاج العبد إلى قلبٍ نقيٍّ طاهرٍ، وإلى عملٍ صالحٍ ظاهرٍ، فإذا نظر الله إلى قلبك كان قلبك نقيًّا طاهرًا، وإذا نظر إلى عملِك كان عملُك صالحًا ظاهرًا، فبحسب ما يكون للعبد من كمال هَٰذَين الأمرين - طهارة القلب، وصلاح العمل - تكون عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، فإنَّ كفايةَ الله للعبد

على قدر إيمانه. ذكره ٱبن تيميَّة الحفيدُ؛ فإذا كان إيمان العبد كبيرًا كانت كفاية الله كبيرةً، وإذا كان إيمانه دون ذَٰلِكَ كانت كفاية الله كذَٰلِكَ.

قال أبو الفرج ٱبن الجوزيِّ في «صيد الخاطر»: «تصفية الأحوال على قدر تصفية الأعمال». ٱنتهى كلامه؛ أي يحصل للعبد من صفاء حاله على قدر صفاء أعماله؛ فإذا صفَّى العبدُ عملَه فكان عملُه صالحًا ظاهرًا، وقلبه نقيًّا طاهرًا؛ صفّى الله عَزَّوَجَلَّ له أحوالَه، فدفع عنه الهمَّ والغَمَّ والحَزَنَ فصار منشرح الصَّدر، قويَّ النَّفس، مطمئنَّ القلب، وبقدر ما يفوته من صفاء عمله وقلبه؛ يفوته قدرٌ من صفاء حاله.

وهَٰذِهِ الأمراض النَّفسيَّة الَّتي خيَّمت بظُلمتها على قلوب الخَلْق؛ عامَّتُها ترجع إلى هَٰذِهِ القاعدة في تهذيب النَّفس وإصلاح القلب، وهي فُقدان صلاح الأعمال، فلمَّا فُقِد صلاح الأعمال؛ فُقِد صفاء الأحوال، ويقع للعبد تخليطٌ في أحواله على قدر تخليطه في أعماله، قال مطرِّف بن العلاء بن الشِّخِّير: «مَنْ صَفّى صُفِّي له، ومَنْ خلّط خُلِّط عليه»؛ أي: مَنْ صَفَّى معاملتَه مع الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه وعمله؛ صَفَّى الله له أحواله، ومَنْ خلَّط في تلك المعاملة وقع له تخليطٌ في تلك الأحوال.

ومن جملة ما يقع للعبد فيه تخليطٌ وصفاءٌ: حيازتُه العلم، فإنَّه مَنْ صفَّى عملَه في طلب العلم وأحسن سلوك الطَّريق المأمور بها شرعًا صفَّى له علمه، ومَنْ خَلَّط خُلِّط عليه علمه حتَّى تنتهي القلوب إلى ما ذكره بقوله: (**مَنْ طَهَّرَ قَلْبَهُ فِيهِ العِلْمُ حَلَّ**) - أي: أقامَ، فأصاب حظَّه منه -، (**وَمَنْ لَمْ يَرْفَعْ مِنْهُ نَجَاسَتَهُ وَدَعَهُ العِلْمُ**) - أي: تركه - (**وَٱرْتَحَلْ**) - أي: ٱنصرف تاركًا له.

وتقدَّم أنَّ العلم الَّذي تتعلَّق به هَٰذِهِ المعاني هو العلم النَّافع، لا مجرَّدُ جمْع المعلومات.

ثمَّ ختم هَٰذا المعقِد بقول (سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللهِ) - وهو التُّسْتَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: («حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ أَنْ يَدْخُلَهُ النُّورُ وَفِيهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»)؛ أي: يمتنع على قلبٍ أن يصيبَ نورًا من نورِ العلم والفهْم وفيه شيءٌ ممَّا يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ.

وشاهدُه في القرآن الكريم قولُ الله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]؛ قال سفيانُ بن عيينةَ في هذه الآية: «أحْرِمُهُم فهْمَ القرآن»، وقال محمَّد بن يوسفَ الفِرِيَابيُّ: «أمنعهم من تدبُّر أمري» - أي: كلامي، فأمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقع اسمًا لكلامه عَزَّوَجَلَّ، وهو في هَٰذِهِ الدِّيانة الإسلاميَّة القرآن الكريم.

فبقدر ما يوجد من المكروه المبغوض لله في القلب؛ تفوتُ الأنوار النَّافعة للقلب، وكما سلف فليس المقصودُ فوْته أنَّه لا يصيبُ معلوماتٍ، ولا ينال في العلم شهاداتٍ، لكِنَّه يفوتُ بركةَ العلم الَّتي تتجلَّى في العمل والدَّعوة والإصلاح والإرشاد والهداية، وفتْحَ المغلقَات وحلَّ المشكلات، وإبرازَ مكنون الشَّريعة من دقائق الفهم في القرآن والسُّنَّة، فبهَٰذَا يتفاوت النَّاس.

وأمَّا المحفوظ؛ فكما ذكر ٱبن الحاج المالكيُّ في «المدخل» أنَّ كثيرًا من النَّاس يحفظ القرآن مع مجاهرته بالمعاصي والمنكرات، فلا يكون المراد من قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦] أنِّي أمنعهم حِفظَ القرآن، لكِنَّه يمنعهم ما هو أعظم من الحفظ، وهو: فهْم القرآن والعمل به، وهو الَّذي فاق به السَّلفُ؛ فإنَّ السَّلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من الصَّحابة والتَّابعين وتابعي التَّابعين، وإن شُورِكُوا معَ مَنْ بعدهم في حفظ القرآن، بل يكون في المتأخِّرين من العدد ما هو أكثر من عدد الحفَّاظ في الصحابة = فإنَّ الصَّحابة والتَّابعين وأتباعهم فاقوا مَنْ بعدهم بالعمل بالقرآن وفهْمِه؛ فتجدُ لهم من فهْم

القرآن وٱستخراج معانيه ما لا تجده لِمَنْ تأخَّر، بل وقع في كلام المتأخِّرين من الخبط والقول على الله بغير العلم من البدع والضَّلالات في بيان معاني القرآن الكريم ما ينضح بالجهل.

زِد على هَٰذَا ما كانوا عليه من العمل الَّذي يُفقَد في القرون الَّتي بعدهم، فكلَّما تأخَّر الزَّمان وضعُف نور النُّبوَّة قلَّ العملُ، وكثُر الجدل.

قال المصنف وفقّه اللّٰه:

المعقد الثَّاني
إِخْلَاصُ النِّيَّة فِيه

إِنَّ إِخْلَاصَ الأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا، وَسُلَّمُ وُصُولِهَا؛ قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥].

وَفِي «الصَّحِيحِيْنِ» عَنْ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ ٱمْرِئٍ مَا نَوَى**».

وَمَا سَبَقَ مَنْ سَبَقَ وَلَا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ إِلَّا بِالإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ المَرُّوذِيُّ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ الله – يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ – وَذُكِرَ لَهُ الصِّدْقَ وَالإِخْلَاصَ؛ فَقَالَ أَبُو عَبْد الله: «بِهَٰذَا ٱرْتَفَعَ القَوْمُ».

وَإِنَّمَا يَنَالُ المَرْءُ العِلْمَ عَلَى قَدْرِ إِخْلَاصِهِ.

وَالإِخْلَاصُ فِي العِلْمِ يَقُومُ عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ، بِهَا تَتَحَقَّقُ نِيَّةُ العِلْمِ لِلْمُتَعَلِّمِ إِذَا قَصَدَهَا:

الأَوَّلُ: رَفْعُ الجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ؛ بِتَعْرِيفِهَا مَا عَلَيْهَا مِنَ العُبُودِيَّاتِ، وَإِيقَافِهَا عَلَى مَقَاصِدِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

الثَّانِي: رَفْعُ الجَهْلِ عَنِ الخَلْقِ؛ بِتَعْلِيمِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ العِلْمِ، وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ.

الرَّابِعُ: العَمَلُ بِالعِلْمِ.

وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ يَخَافُونَ فَوَاتَ الإِخْلَاصِ فِي طَلَبِهِمُ العِلْمَ، فَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ ٱدِّعَائِهِ، لَا أَنَّهُم لَمْ يُحَقِّقُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ.

سُئِلَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: هَلْ طَلَبْتَ العِلْم لله؟، فَقَال: «لله! عَزِيزٌ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ حُبِّبَ إِلَيَّ فَطَلَبْتُهُ».

وَمَنْ ضَيَّعَ الإِخْلَاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ، وَخَيْرٌ وَفِيرٌ.

وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلَامَةِ أَنْ يَتَفَقَّدَ هَذَا الأَصْلَ - وَهُوَ الإِخْلَاصُ - فِي أُمُورِه كُلِّهَا، دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا، سِرِّهَا وَعَلَنِهَا.

وَيَحْمِلُ عَلَى هَذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّةِ.

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي؛ لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ».

بل قَالَ سُلَيْمَانُ الهَاشِمِيُّ: «رُبَّمَا أُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ وَلِي نِيَّةٌ، فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِهِ تَغَيَّرَتْ نِيَّتِي، فَإِذَا الحَدِيثُ الوَاحِدُ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّاتٍ».

❀ ❀ ❀

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقداً آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**إِخْلَاصُ النِّيَّةِ فِيهِ**)؛ لأنَّ (**إِخْلَاصَ الأَعْمَالِ أَسَاسُ قَبُولِهَا، وَسُلَّمُ وُصُولِهَا**؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة:٥])؛ أي: حالَ كونهم مخلصين الدِّين لله.

والإخلاص شرعًا: هو تصفية القلب من إرادة غير الله، وإلى ذَٰلِكَ أشرتُ بقولي:

إِخْلَاصُنَا للهِ صَفِّ القَلْبَ مِنْ ... إِرَادَةٍ سِوَاهُ فَاحْذَرْ يَا فَطِنْ

ثم ذكر حديث عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصَّحيحين»؛ (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»)؛ فعملُ العبد مُعلَّقٌ بنيَّته، وله من عمله بحسب ما نواه، وإذا كان الأمر كذَٰلِكَ دعاه إلى الإخلاص، فالإخلاص هو الكيفيَّة الشَّرعيَّة المطلوبة

للنِّيَّة، فحقيقة **النِّيَّة** شرعًا: إرادة القلبِ العملَ تقرُّبًا إلى الله.

وتلك الإرادة تكون في أعلى أحوالها في الإخلاص، فالإخلاص أكمل النِّيَّة، وهو المطلوب شرعًا منها.

ثمَّ ذكر قول (أَبِي بَكْرٍ المَرُّوذِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ) - من أصحاب الإمام أحمدَ -: (سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِأَبِي عَبْدِ الله - يَعْنِي أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - وَذُكِرَ لَهُ الصِّدْقَ وَالإِخْلَاصَ؛ فَقَال أَبُو عَبْد الله: «بِهَذَا ٱرْتَفَعَ القَوْمُ»)؛ أي: بِهَذَا ٱرْتَفَعَ مَنْ سبق من الصَّدر الأوَّل.

فلجلالة ما أصابوه من الصِّدق والإخلاص نالوا المرتبة العالية، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بالإخلاص، وأمرنا بالصِّدق، فمَنْ صار له نصيبٌ وافرٌ منهما ٱرْتَفَعَ، ومَنْ فَقَد الإخلاص والصِّدق ٱتَّضع، وعلى قدر ما يكون عنده منهما وما يُفقَد منهما؛ تكون رِفعةُ العبد وضَعَتُه.

وأحسنُ ما قيل في الفرق بين الإخلاص والصدق: أنَّ الإخلاصَ هو توحيد المراد، والصِّدق هو توحيد الإرادة. ذكره ٱبن القيِّم وغيره.

وإلى ذَٰلِكَ أشرت بقولي:

وَمُخْلِـــــصٌ مُوَحِّـــدٌ مُـــرَادَهْ وَالصِّـــدْقُ فِي تَوْحِيـــدِهِ الإِرَادَهْ

فيكون العبد مُخلصًا إذا وحَّد المرادَ، بألَّا يكون له مقصودٌ يتوجَّه إليه بعمله سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا ينازعه مرادٌ آخر يتوجَّه إليه بما يعمل.

وإذا توجَّه العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ فكان هو مراده حصَّل الإخلاص، ولَزِمَه أن يبتغي الصِّدق بأن يُجَرِّد تلك الإرادة الَّتي يتوجَّه بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تكون إرادتُه مقطوعةً أو ممزوجةً بمشاركة شيءٍ في توجُّهه إلى ذَٰلِكَ المراد؛ فمثلًا: ممَّنْ يُتوَجَّه إليه أن يتوجَّه العبد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتوجَّه آخرُ إلى وثنٍ من الأوثان، فهٰذا وهَٰذَا كلاهما مرادٌ، ويتميَّز المخلِص بأن يكون مراده هو الله وحده لا سواه، فإذا توجَّه المخلص إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجب عليه أن يكون صادقًا في توجُّهه، بأن تكون تلك الإرادة مجموعةً على ذَٰلِكَ المراد، فلا

تُخْلَط تلك الإرادة بشيءٍ آخر يُضعِف سيْرها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمَّ ذكر أنَّ العلم إنَّما يُنال على قدر الإخلاص فقال: (**وَإِنَّمَا يَنَالُ المَرْءُ العِلْمَ عَلَى قَدْرِ إِخْلَاصِهِ**)، وفي المأثور عن ٱبن عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال: «إنَّما يحفظ المرء على قدر نيَّته». رواه ٱبن عساكرٍ وغيرُه؛ أي: يُحَصِّل العبد قوَّة الحفظ على قدر ما له من النِّيَّة، ومثل ذَٰلِكَ يُقال في الفهم وغيره من آلة العلم الَّتي تُبَلِّغ العبد إيَّاه.

ثمَّ نعت المصنِّف ما يتحقَّق به الإخلاص في العلم بأن بيَّن أنَّ نيَّة العلم تقوم (عَلَى أَرْبَعَةِ أُصُولٍ):

(الأَوَّلُ: رَفْعُ الجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ؛ بِتَعْرِيفِهَا مَا عَلَيْهَا مِنَ العُبُودِيَّاتِ، وَإِيقَافِهَا عَلَى مَقَاصِدِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ)؛ فيلتمس طالب العِلْمِ العِلْمَ ليُعرِّف نفسَه بما عليه من عبوديَّةٍ لله عَزَّوَجَلَّ، ويوقفها على ما يُقصَد من أمرٍ أمره به الشَّرع أو نهيٍ نهاه عنه.

و(الثَّانِي: رَفْعُ الجَهْلِ عَنِ الخَلْقِ؛ بِتَعْلِيمِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ لِمَا فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ).

و(الثَّالِثُ: إِحْيَاءُ العِلْمِ) - أي: بقاؤه قويًّا ظاهرًا في النَّاس -، (وَحِفْظُهُ مِنَ الضَّيَاعِ) - أي: من الفقْد والزَّوال.

و(الرَّابِعُ: العَمَلُ بِالعِلْمِ).

فهٰذِهِ الأصول الأربعة هي أمَّهات ما يُطلَب من النِّيَّة في العلم، وما يُذكَر في كلام أهل العلم سواها فإنَّه يرجع إلى واحدٍ من هَٰذِهِ الأصول.

ثمَّ ذكر الحال الَّتي كان عليها السَّلف في الإخلاص، فقال: (وَلَقَدْ كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ يَخَافُونَ فَوَاتَ الإِخْلَاصِ فِي طَلَبِهِمُ العِلْمَ، فَيَتَوَرَّعُونَ عَنِ ٱدِّعَائِهِ، لَا أَنَّهُم لَمْ يُحَقِّقُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ)؛ فلشِدَّة خوفهم من فوات الإخلاص لم يكونوا يدَّعون أنَّهم أخلصوا في العلم تورُّعًا.

ومن شواهِده: أنَّ الإمام أحمدَ سُئل: (هَلْ طَلَبْتَ العِلْم لله؟، فَقَال: «لله! عَزِيزٌ»)؛ أي: أن

يكون طلبي خالصًا لله شيءٌ يشقُّ عليَّ أدِّعاؤه، فعزيز عليَّ - أي: شاقٌّ عليَّ، بعيدٌ عنِّي - أن أدَّعي أنِّي طلبتُ العلم لله، قال: («وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ حُبِّبَ إِلَيَّ فَطَلَبْتُهُ»)؛ أي: كان مُبتدأ رغبته في العلم أنَّه أحبَّ العلم فطلبَه، ثمَّ حدثتِ النِّيَّة الصَّالحة بعدُ، فإنَّ العلم من المُرادات الَّتي تُطلَب لمحبَّتها عند كثيرين، وقد ذكر ٱبن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في «قاعدةٍ» له منشورةٍ في مجموعة بحوثٍ مهداةٍ إلى محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ العلم قد يكون طلبُه من جنس المباح إذا كان طالبُه طلبَه لأجل محبَّته فقط، وهَٰذَا شيءٌ صار غالبًا على النَّاس بأَخَرَةٍ؛ فما يُسمَّى (متعةَ القراءة) هي من جنس المباح، فإنَّه تمتيعٌ للنَّفس بمفرداتٍ يُدركها القلبُ، فيؤنِس بها لذَّةً، وهَٰذَا من جنس تناول المحبوبات من المطعومات الَّتي يأكلها فيجد حلاوتها ولذَّتها في فمه، فكذَٰلِكَ متعة القراءة هي من جنس هَٰذَا، فإنَّ القلب يجد متعةً ولذَّةً يكون بها هَٰذَا المطلوب مباحًا.

ولهَٰذَا تجد أنَّ هَٰذِهِ المعاني خرجت من غير الرَّاسخين في العلم، فإنَّ الرَّاسخ في العلم لا يدعوك إلى متعة القراءة، وإنَّما يدعوك إلى طلب العلم الَّذي يُقَرِّبك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لَٰكِن ينبغي أن تعرف أنَّ الحال الَّتي يكون عليها هَٰؤُلَاءِ وكثيرٌ من النَّاس هي مَحَبَّةُ العلم لذاته، لا لإرادة التَّقرُّب به إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي حالٌ تعرض كثيرًا عند ٱبتداء الطَّلب، فعامَّة مَنْ يطلب العلم يطلبه محبَّةً له، فإنَّ معنى التَّقرُّب يكون ضعيفًا في القلوب غالبًا عند الابتداء ولاسيَّما مع صِغَر السِّنِّ، فإذا مضى فيه صاحبه رجعتِ النِّيَّة إلى إخلاصه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهَٰذَا معنى قول مجاهدٍ وغيره: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى الله أن يكون إلَّا له»؛ أي: طلبنا العلم بغير نيَّةٍ نريد بها التَّقرُّب، ثمَّ حملنا العلم على أن نريد به التَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثمَّ قال: (**وَمَنْ ضَيَّعَ الإِخْلَاصَ فَاتَهُ عِلْمٌ كَثِيرٌ، وَخَيْرٌ وَفِيرٌ**).

(وَيَنْبَغِي لِقَاصِدِ السَّلَامَةِ أَنْ يَتَفَقَّدَ هَٰذَا الأَصْلَ - وَهُوَ الإِخْلَاصُ - فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا،

دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا) - أي: ما عَظُم منها وما صغُر، فالدَّقيق: ٱسمٌ لما صغُر، والجليل: ٱسمٌ لما عظُم - (سِرِّهَا وَعَلَنِهَا) - أي: ما خفي منها وما ظهر، فالسِّرُّ: ٱسمٌ لما خفي، والعلن: ٱسمٌ لما ظهر.

فالعبد مأمورٌ أن يتفقَّد الإخلاص في أعماله كلِّها؛ لأنَّ تَفَقُّد الإخلاص بتَتَبُّعه والتَّنقيب عنه يُبَلِّغ العبد جادَّة السَّلامة، والغفلةُ عن ذَٰلِكَ تورده المهالك.

قال: (وَيَحْمِلُ عَلَى هَٰذَا التَّفَقُّدِ شِدَّةُ مُعَالَجَةِ النِّيَّةِ)؛ أي: شِدَّة ما يعانيه ويلاقيه العبد في أمر نيَّته.

(قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا») - أي: ما كابدتُ عناءً في المعالجة - («أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي»)، وعلَّل ذَٰلِكَ بقوله: («لِأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ»)، وتقلُّب النِّيَّة هو تحوُّلها عن وجهها، لا إلى وجهٍ واحدٍ، بل إلى وجوهٍ متعدِّدةٍ، فإنَّ العبد تكون له نيَّةٌ إذا شرع في عملٍ، ثمَّ تنقلب تلك النِّيَّة إلى معنًى آخر، ثمَّ تنقلب تلك النِّيَّة إلى معنًى ثانٍ لم يكن في قلبه لمَّا ٱبتدأ عمله؛ فمن صفات النِّيَّة أنَّها متقلِّبةٌ.

وموجِب تقلُّبها هو أنَّ محلَّها القلب، والقلب مُتقَلِّبٌ، ولمَّا كان محلُّ النِّيَّة متقلِّبًا صار التَّقلُّب وصفًا لها، قال الأوَّل:

قَدْ سُمِّيَ القَلْبُ قَلْبًا مِنْ تَقَلُّبِهِ فَاحْذَرْ عَلَى القَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

أي: إنَّما سُمِّي القلب قلبًا لأنَّه يتقلَّب، فينبغي أن تحرص على قلبك من القلب والتَّحويل.

ومَنِ ٱعتبر هَٰذَا التَّقلُّب في النَّاس ممَّا جاء خبره في القرآن والسُّنَّة وآثار السَّلف أو ما يراه العبد من معاينة أحوالهم بدا له ظاهرا شِدَّة هَٰذَا التَّقلُّب الَّذي منشؤُه من القلب، فمَنْ حَفِظ قلبَه ثبت، ومَنْ لم يحفظ قلبَه تقلَّبَ به قلبه، وربَّما أودى به تقلُّبه في مهلكةٍ عظيمةٍ.

ثمَّ ذكر أمرًا أشدَّ، فقال: (بل قَالَ سُلَيْمَانُ الهَاشِمِيُّ: «رُبَّمَا أُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ وَاحِدٍ وَلِي نِيَّةٌ، فَإِذَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِهِ») - أي: فإذا ذكرتُ بعضَه - («تَغَيَّرَتِ نِيَّتِي»)؛ أي: تحوَّلت نِيَّتي؛

كإنسانٍ شرع يذكر حديثًا، فقال: «إنَّما الأعمال بالنِّيَّة، وإنَّما لامرئٍ ما نوى»، فبدت له نيَّةٌ أخرى في حُسْن ذِكْره اللَّفظَ المتَّفقَ عليه، فلفظ «إنَّما الأعمال بالنِّيَّات» للبخاريِّ وحده، وأمَّا لفظ «إنَّما الأعمال بالنِّيَّة» فهو للبخاريِّ ومسلمٍ، فتجدَّدت له نيَّةٌ لم تكن في قلبه لمَّا حدَّث بهَٰذَا الحديث تعليمًا، أو وعظًا وإرشادًا.

قال: («فَإِذَا الحَدِيثُ الوَاحِدُ يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّاتٍ»)؛ أي: إذا الحديث الواحد الَّذي يذكره العبد يحتاج إلى نيَّاتٍ تتجدَّد بالرَّدِّ إلى النِّيَّة الأولى، فهو يُحَدِّث بالحديث وله نيَّةٌ صالحةٌ، ثمَّ تَعْرِض نيَّةٌ مرذولةٌ، ثم يرده إلى النِّيَّة الصَّالحة، ثمَّ تَعْرِض نيَّةٌ مرذولةٌ أخرى، فيرده إلى النِّيَّة الصَّالحة، فيكون الحديث الواحد محتاجًا إلى نيَّاتٍ متعدِّدةٍ؛ كالَّذي ذكرتُه آنفًا من لفظ «الصَّحيحين» وهو: «الأعمال بالنِّيَّة»؛ فإنَّ العبد قد يزهو بحُسن ضبطِه للفظ «الصَّحيحين»، ثمَّ يمضي ويذكر بعد ذَٰلِكَ الجملة الأخيرة من الحديث: «فمَنْ كانت هجرتُه إلى الله ورسولِه؛ فهجرتُه إلى الله ورسوله»، ويذكر حينئذٍ أنَّ البخاريَّ أوردَه في أوَّل موضعٍ منقوصًا من هَٰذِهِ الجملة، فيحصل له من نيَّةٍ أخرى من الزُّهُوِّ أو الإعجاب بنفسه أو غير ذَٰلِكَ ما يوقعه في مهلكةٍ، فالعبد يحتاج دائمًا إلى تصحيح النِّيَّة.

وتصحيح النِّيَّة هو: ردُّها إلى المأمور به شرعًا إذا عرض لها ما يُغيِّرها أو يفسدها.

وقولنا: (ما يُغيِّرها)؛ أي: يُخرجها من نيَّة التَّقرُّب إلى الإباحة.

وقولنا: (يُفسدها)؛ أي: يُخرجها من نيَّة التَّقرُّب إلى نيَّةٍ محرمةٍ شرعًا.

وهَٰذَا أصلٌ عظيمٌ؛ فالعبد دومًا مُفتَقِرٌ أشدَّ الافتقار إلى تصحيح نيَّته في أعماله؛ لأنَّ تلك النِّيَّة تتقلَّب عليه، وهَٰذَا التَّقلُّب تارةً يكون بعارضٍ يُغيِّرها، وتارةً أخرى بعارضٍ يفسدها.

فالعارض الَّذي يُغيِّرها هو الَّذي يُخرجها من قصْد الطَّاعة إلى مجرَّد المباح، والعارض الَّذي يُفسدها هو الَّذي ينقلها من قصْد الطَّاعة إلى مقاصدَ خبيثةٍ؛ كالاستعلاء على النَّاس، أو الزُّهُوِّ، أو الرِّياء، أو السُّمعة، أو الكِبر، أو العُجب، أو غير ذَٰلِكَ من النِّيَّات الفاسدة.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الثَّالِثُ
جَمْعُ همّةِ النَّفْسِ علَيهِ

تُجْمَعُ الهِمَّةُ عَلَى المَطْلُوبِ بِتَفَقُّدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الحِرْصُ عَلَى مَا يَنْفَعُ، فَمَتَى وُفِّقَ العَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حَرَصَ عَلَيْهِ.

ثَانِيهَا: الاسْتِعَانَةُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ.

ثَالِثُهَا: عَدَمُ العَجْزِ عَنْ بُلُوغِ البُغْيَةِ مِنْهُ.

وَقَد جُمِعَت هَذِهِ الأُمُورُ الثَّلَاثَةُ فِي الحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**ٱحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وٱسْتَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجِزْ**».

قال الجُنَيْدُ رَحِمَهُٱللَّهُ: «مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدٍّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّه نَالَ بَعْضَهُ».

قَال ٱبْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الفَوَائِد»: «إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ البَطَالَةِ، وَرَدِفَهُ قَمَرُ العزيمةِ؛ أَشْرَقَتْ أَرْضُ القَلْبِ بِنُورِ رَبِّهَا».

وَإِنَّ مِمَّا يُعْلِي الهِمَّةَ وَيَسْمُو بِالنَّفْسِ: ٱعْتِبَارَ حَالِ مَنْ سَبَقَ، وَتَعَرُّفَ هِمَمِ القَوْمِ المَاضِينَ.

فَأَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ ٱبْنِ حَنْبَلٍ كَانَ وَهُوَ فِي الصِّبَا رُبَّمَا أَرَادَ الخُرُوجَ قَبْلَ الفَجْرِ إِلَى حِلَقِ الشُّيُوخِ، فَتَأْخُذُ أُمُّهُ بِثِيَابِهِ وَتَقُولُ رَحْمَةً بِهِ: «حَتَّى يُؤَذِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا».

وَقَرَأَ الخَطِيبُ «صَحِيحَ البُخَارِيِّ» كُلَّهُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ الحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ؛ ٱثْنَانِ مِنْهَا فِي لَيْلَتَيْنِ مِنْ وَقْتِ صَلَاةِ المَغْرِبِ إِلَى صَلَاةِ الفَجْرِ، وَاليَوْمَ الثَّالِثَ مِنْ ضَحْوَةِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ المَغْرِبِ، وَمِنَ المَغْرِبِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ.

وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ٱبْن التَّبَّانِ أَوَّلَ ٱبْتِدَائِهِ يَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْحَمُهُ وَتَنْهَاهُ عَنِ القِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ، فَكَانَ يَأْخُذُ المِصْبَاحَ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ الجَفْنَةِ – شَيْءٍ مِنَ الآنِيَةِ العَظِيمَةِ – وَيَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ، فَإِذَا رَقَدَتْ أَخْرَجَ المِصْبَاحَ وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّرْسِ.

فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ عَلَى الثَّرَى ثَابِتَةٌ، وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فَوْقَ الثُّرَيَّا سَامِقَةٌ، وَلَا تَكُنْ شَابَّ البَدَنِ أَشْيَبَ الهِمَّةِ؛ فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيبُ.

كَانَ أَبُو الوَفَاءِ ٱبْنُ عَقِيلٍ – أَحَدُ أَذْكِيَاءِ العَالَمِ مِنْ فُقَهَاء الحَنَابِلَةِ – يُنْشِدُ وَهُوَ فِي الثَّمَانِينَ:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي ... وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي

وَإِنَّمَا ٱعْتَاضَ شَعْرِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الهِمَمِ

❀ ❀ ❀

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا ثالثًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**جَمْعُ هِمَّةِ النَّفْسِ عَلَيه**).

وبيَّن كيفيَّة جمْع الهمَّة على العلم فقال: (تُجْمَعُ الهِمَّةُ عَلَى المَطْلُوبِ بِتَفَقُّدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلُهَا: الحِرْصُ عَلَى مَا يَنْفَعُ، فَمَتَى وُفِّقَ العَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حَرَصَ عَلَيْهِ.

ثَانِيهَا: الاسْتِعَانَةُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ.

ثَالِثُهَا: عَدَمُ العَجْزِ عَنْ بُلُوغِ البُغْيَةِ مِنْهُ).

وهَذَا أصلٌ في كيفيَّة عُلوِّ الهمَّة في كلِّ مطلوبٍ، فإنَّه مَنْ أراد أن يكون عالي الهمَّة في شيءٍ يطلبه من علمٍ أو عملٍ وجب عليه أن يتفقَّد هَٰذِهِ الأمور الثَّلاثة:

فأوَّلها: أن يحرص على ما ينفعه، بأن يجعل قبلة نفسه الأمور النَّافعة، (فَمَتَى وُفِّقَ العَبْدُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ حَرَصَ عَلَيْهِ)؛ فإنَّ وصول النَّفس إلى الأمر النَّافع الَّذي تجد أثره يدعوها إلى الحرص عليه.

فممَّا يجعل همَّتك عاليةً: أن تتوجَّه إلى مطلوبٍ نافعٍ، ثمَّ تتلبَّس بالحرص عليه.

وثانيها: (الاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي تَحْصِيلِهِ)؛ لأنَّه لا حول للعبد ولا قوَّة على شيءٍ من مقاصدِه في نيلها إلَّا بإعانة الله عَزَّوَجَلَّ له؛ فإنَّ العبد عاجزٌ واللهَ قادرٌ، والعبد ضعيفٌ والله قويٌّ، فلا سبيل إلى إقدار هَٰذَا العاجز وتقوية ذَٰلِكَ الضَّعيف إلَّا بمعونةٍ ممَّنْ له القدرة الكاملة، والقوَّة البالغة، وهو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا فقد العبد هَٰذَا العونَ لم يكن له قدرةٌ على تحصيل مطالبه، قال الشاعر:

إذا لم يكن من الله عونٌ للفتى ... فأوَّل ما يجني عليه اجتهادُه

وهَٰذَا هو معنى قول العبد في كلِّ صلاةٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]؛ فقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة]؛ أي: نطلب معونتك في كلِّ أمرٍ نطلبُه، فنستعين بالله على تلك المطلوبات.

وثالثها: (عَدَمُ العَجْزِ عَنْ بُلُوغِ البُغْيَةِ مِنْهُ)؛ أي: عدم حصول عجزٍ في النَّفس عن بلوغ العبد مقصوده من ذَٰلِكَ المطلوب، فالبغية من الشَّيء هي: المقصود والطِّلبة منه.

والعجز: عَرَضٌ يعرض للرُّوح والنَّفس فيوهنها، بخلاف الكسل؛ فإنَّ **الكسل**: عَرَضٌ يعرض للبدن فيوهنه.

فالفرق بين العجز والكسل:

أنَّ العجزَ: محلُّه الرُّوح والنَّفس.

والكسلَ: محلُّه البدن.

ذكره ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جماعةٍ آخرين.

ثمَّ ذكر المصنِّف أنَّ هَٰذِهِ الأمور الثَّلاثة وقعت في نسَقٍ واحدٍ في حديثٍ نبويٍّ، وهو قولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: («**ٱحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وٱسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»)؛ فجُمَلُه الثَّلاث هي دلائل تلك الأمور واحدًا واحدًا.

فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: («**ٱحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**») دليل الأوَّل.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: («**وٱسْتَعِنْ بِاللهِ**») دليل الثَّاني.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: («**وَلَا تَعْجِزْ**»[1]) دليل الثَّالث.

ثمَّ ذكر قولَ (الجُنَيْدِ رَحِمَهُٱللَّهُ: «مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدٍّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّه نَالَ بَعْضَهُ»)؛ فالعبدُ إذا قارن طلبَه الجدُّ والصِّدقُ نالَ مطلوبه، ولو قُدِّر أنَّه لا ينال مطلوبه كاملًا فإنَّه ينال منه حظًّا وافرًا.

(قَالَ ٱبْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ «الفَوَائِد»: «إِذَا طَلَعَ نَجْمُ الهِمَّةِ فِي ظَلَامِ لَيْلِ البَطَالَةِ») – والبطالة هي الفساد؛ فالفساد والاشتغال بما لا ينفع يُسمَّى بطالةً، فإنَّ العبدَ البطَّال هو المشتغِل بما لا ينفعه، وأعظم ما لا ينفعه هو: ما يفسدُه إذا ٱشتغل به –، («وَرَدِفَهُ») – يعني: تبعه بعده – («قَمَرُ العزيمةِ؛ أَشْرَقَتْ أَرْضُ القَلْبِ بِنُورِ رَبِّهَا»)؛ أي: إذا ٱجتمعتِ الهمَّة والعزيمة حصل للقلب النُّور والكمال.

ثمَّ قال: (وَإِنَّ مِمَّا يُعْلِي الهِمَّةَ وَيَسْمُو بِالنَّفْسِ: ٱعْتِبَارَ حَالِ مَنْ سَبَقَ، وَتَعَرُّفَ هِمَمِ القَوْمِ المَاضِينَ)؛ فممَّا تكون به الهمَّةُ عاليةً والنَّفسُ ساميةً: أن يعتبر العبد أحوال السَّلف الَّذين تقدَّموا، فإنَّ الاطِّلاع على السِّيَر من أنفع ما يكون في ٱقتباس العلم، قال أبو الفرج ٱبن الجوزيِّ: «لا أجد شيئًا أنفعَ لطالب العلم من إدمان النَّظر في سِيَر السَّلف». ٱنتهى كلامه.

---

(١) بكسر الجيم، وتُفتَح أيضًا؛ فيُقال: «ولا تعجِز»، «ولا تعجَز».

وذكر ٱبن مُفلحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ منفعة العلم والفقه قليلةٌ ما لم يُقرَن بالرَّقائق وقراءة سِيَر السَّلف؛ فالعبد لا ينتفع بعلمه ما لم يمزُجه بالرَّقائق وكثرة النَّظر في سِيَر الماضين، فإنَّ هَٰذَين الأمرين يعملان في النَّفس عملًا عظيمًا، ففساد النَّفس أو ضعْفُها يُدفَع بهَٰذَا وهَٰذَا.

قال ٱبن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فصلٍ في «صيد الخاطر»: «تأمَّلتُ العلم والميلَ إليه والتَّشاغل به، فإذا هو يقوِّي القلب قوَّةً تميل به إلى نوع قساوةٍ، فإنِّي أسمع الحديثَ أرجو أن أَرْوِيَه، وأبتدئ بالتَّصنيف أرجو أن أُتِمَّه، ولولا قوَّة القلب وطول الأمل لما وقع هَٰذَا»، ثمَّ ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ النَّافع للقلب الاشتغال بطلب العلم، مع تلذيع النَّفس بأنواعِ المرقِّقات تلذيعًا لا يُخرجها عن كمال التَّشاغل بالعلم، فما تحصل به رقَّة القلب من زيارة الصَّالحين أو شهود الجنائز أو زيارة المقابر، أو قيام الليل، أو قراءة سِيَر السَّلف = كلُّ هَٰذَا من الأمور الَّتي تُطلَب في ٱقتباس العلم.

ومن أسباب الانقطاع عن طلب العلم فوات هَٰذه المعاني من طلَّابه فتجد أحدَنا يشتغل بطلب العلم، ثمَّ لا يكون له حظٌّ من تلك المرقِّقات، وإذا سبرتَ حاله في ٱقتباس علمٍ يدلُّه عليها وجدتَه ينظر إلى هَٰذه العلوم نظرًا يُنزلها بها عن رتبتها، فإذا ذُكِر له علم السِّيرة، أو علم السِّيَر والتَّراجم، أو علم التَّاريخ، أو علم أحوال القلب، أو علم تهذيب الأخلاق = رأى أن هَٰذه علومٌ بيِّنةٌ واضحةٌ لا تحتاج إلى تلَقٍّ عن شيخٍ، فهو يُفَرِّط في تلقِّيها تلقِّيًا صحيحًا، ثمَّ يُفرِّط في القراءة فيها، ثمَّ يُفَرِّط في وجودها في نفسه ٱمتثالًا، فلا يُحَصِّل العلم، ولا ينفع العلمُ إلَّا كما ذكر لك ٱبن الجوزيِّ وٱبن مُفلِحٍ منِ ٱحتياجِ العبد إلى النَّظر في سِيَر السَّلف وترقيق القلب بأنواع المرقِّقات.

ثمَّ ذكر من شواهد ما كان عليه مَنْ مضى في عُلوِّ همَّتهم ما يقوِّي النَّفسَ ويُذكي همَّتها في طلب اللَّحاق بهم، فقال: (فَأَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ ٱبْنِ حَنْبَلٍ كَانَ وَهُوَ فِي الصِّبَا) - أي: في مبتدإ عُمُره - (رُبَّمَا أَرَادَ الخُرُوجَ قَبْلَ الفَجْرِ إِلَى حِلَقِ الشُّيُوخِ، فَتَأْخُذُ أُمُّهُ بِثِيَابِهِ وَتَقُولُ رَحْمَةً بِهِ:

«حَتَّى يُؤَذِّنَ النَّاسُ أَوْ يُصْبِحُوا»)؛ أي: ٱصبر حتَّى يؤذِّن النَّاس أو يصبحوا، فإذا أذَّنوا أو أسفر الصَّباح وبان فاخرج إلى حِلَق الشُّيوخ.

(وَقَرَأَ الخَطِيبُ «صَحِيحَ البُخَارِيِّ» كُلَّهُ عَلَى إِسْمَاعِيلَ الحِيرِيِّ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالِسَ؛ ٱثْنَانِ مِنْهَا فِي لَيْلَتَيْنِ مِنْ وَقْتِ صَلَاةِ المَغْرِبِ إِلَى صَلَاةِ الفَجْرِ، وَاليَوْمَ الثَّالِثَ مِنْ ضَحْوَةِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ المَغْرِبِ، وَمِنَ المَغْرِبِ إِلَى طُلُوعِ الفَجْرِ)، فأيُّ همَّةٍ كانت لهَذَا الرَّجل أحرقته حتَّى صبَّرته، فإنَّ الهمَّة تُحرق النَّفس فتشرق بها، فإنَّ الهمَّة كالنَّار في النَّفس، ومن شِدَّة ما يجد المُحترِق بها تجعله قائمًا بهَذَا الشَّأن، وهَذَا معنى قول بَعْضِهم: «مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ بِدَايَةٌ مُحْرِقَةٌ؛ لَمْ تَكُنْ لَهُ نِهَايَةٌ مُشْرِقَةٌ»؛ أي: مَنْ لم يكن في مبتدإ ٱقتباسه العلم ذا تحرُّقٍ وحرصٍ في طلب ما يريده فإنَّه لا ينال منه مقصوده حتَّى يكون كالشَّمس في النَّاس الَّتي تُشرق بينهم فتنفعه، وتجد في تراجم بعضهم قولهم: «إنَّه كان كشعلة نارٍ»؛ أي: صاحب همَّةٍ[1]، فهٰذِهِ هي الحال الَّتي كان عليها الخطيب حتَّى حملته على هَٰذَا المشهد العظيم.

قال: (وَكَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ ٱبْنِ التَّبَّانِ أَوَّلَ ٱبْتِدَائِهِ) - أي: في أوَّل أخْذه العلم - (يَدْرُسُ اللَّيْلَ كُلَّهُ) - أي: يُمضي اللَّيل في دراسة العلم -، والمقصود بـ(الدِّراسة): نظرُه فيما أخذه في يومه من العلم.

قال: (فَكَانَتْ أُمُّهُ تَرْحَمُهُ وَتَنْهَاهُ عَنِ القِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ) حتَّى لا يذهب بصره، (فَكَانَ يَأْخُذُ المِصْبَاحَ وَيَجْعَلُهُ تَحْتَ الجَفْنَةِ - شَيْءٍ مِنَ الآنِيَةِ العَظِيمَةِ - وَيَتَظَاهَرُ بِالنَّوْمِ) - أي: يُهيِّئ لأمِّه أنَّه نائمٌ -، (فَإِذَا رَقَدَتْ أَخْرَجَ المِصْبَاحَ وَأَقْبَلَ عَلَى الدَّرْسِ)، ولا يفعل هَٰذَا إلَّا شديد المحبَّة للعلم؛ فشديد المحبَّة للعلم يطلب كلَّ سبيلٍ إلى مطلوبه، فهو في اللَّيل يسهر وينظر في الكتب على ضوء المصباح، وربَّما غالبَه مُحِبٌّ - كأمٍّ أو زوجٍ - فهادنه مصالحةً

(١) والعوامُّ عندنا يقولون: فلانٌ يتلهَّب، أو فلانٌ شعلةٌ، يعني: من شِدَّة النَّشاط الَّذي يجده.

وخادعه بالانسلال إلى العلم مرَّةً أخرى، وهَٰذِهِ الأحوال لا تصدر إلا ممَنْ يتقطع قلبه على محبة العلم.

لَقِيتُ الشَّيْخَ جَعْفَر العَتْمِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - عُضْوُ هَيْئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ أَبْهَا -، فَسَأَلْتُهُ عَنْ حَالِهِ فِي الطَّلَبِ، فَذَكَرَ أَشْيَاءَ؛ مِنْهَا: أَنَّ أَكْثَرَ مَا قَرَأَهُ مِنَ العِلْمِ كَانَ عَلَى نُورِ القَمَرِ، قَالَ: لِأَنَّ الزَّيْتَ كَانَ قَلِيلًا فِي ذَٰلِكَ الزَّمَانِ وَلَا كَهْرَبَاءَ، فَكُنْتُ أَسْتَعِينُ بِنُورِ القَمَرِ عَلَى مُطَالَعَةِ الكُتُبِ فِي اللَّيلِ.

ولَقِيتُ رَجُلًا مِنَ العُلَمَاءِ ٱسْمُهُ شِبِّير عَطَا بْنُ العَلَّامَةِ حَلِيم عَطَا رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وَأَبُوهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ فِي العِلْمِ وَإِنْ جَهِلَهُ النَّاسُ، حَتَّى قَالَ فِيهِ مَسْعُودٌ النَّدوِيُّ: إِنِّي لَمْ أَرَ فِي العَرَبِ وَلَا العَجَمِ أَحَدًا أَعْلَمَ بِكَلَامِ ٱبْنِ تَيْمِيَّةَ وَٱبْنِ القَيِّمِ مِنْ حَلِيمٍ عَطَا... وله شواهدُ ليس هَٰذَا مقام ذِكْرها، وَخَلَفَهُ بَعْدَهُ ٱبْنٌ لَهُ ٱسْمُهُ شِبِّير عَطَا -، وَكَانَ شَدِيدَ المَحَبَّةِ لِلْعِلْمِ، مُكْثِرًا مِنَ القِرَاءَةِ، حَتَّى أَنَّهُ كَانَ فِي شَبَابِهِ يَقْرَأُ فِي اليَوْمِ الوَاحِدِ ثَمَانِمِائَةِ صَفْحَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ: كَمْ قَرَأْتَ مِنَ الكُتُبِ؟، فَضَحِكَ وَقَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضْبِطَ لَكَ، لٰكِنَّ الَّذِي قَرَأْتُهُ عَلَى نُورِ القَمَرِ أَلْفَيْ مُجَلَّدٍ!!

وهَٰذِهِ حالٌ لا يفعلها إلَّا مَنْ تقطَّع قلبُه على محبَّة العلم.

قال بعد: (فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ عَلَى الثَّرَى ثَابِتَةٌ) - والثَّرى: ٱسمٌ لوجه الأرض وترابها -، (وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فَوْقَ الثُّرَيَّا سَامِقَةٌ) - والثُّرَيَّا: نجمٌ مرتفعٌ في السَّماء -؛ فأمَرَ أحدَنا أن يكون رجلًا رجلُه - أي: بدنه - على الأرض؛ لأنَّه من أهلها، لٰكِن هَامَةُ هِمَّتِهِ - يعني: رأسُ هِمَّتِهِ وأعلاها - فوق نجم الثُّرَيَّا مرتفعًا.

(وَلَا تَكُنْ شَابَّ البَدَنِ أَشْيَبَ الهِمَّةِ)، وشابُّ البدن أشيب الهمَّة هو الَّذي يكون في عمره صغيرًا، لٰكِن في هِمَّتِهِ وَهِنًا ضعيفًا، فتجده في قوَّة بدنه مفتول العضلات، متماسك القُوى، ثمَّ إذا تفَقَّدته في مطلوباته وجدتَه ضعيف الهمَّة، عاجزًا عن نيْل مطلوباته، فهٰذا شابٌّ في الظَّاهر أشيبُ في الباطن.

والأشيبُ: ٱسم للرجل إذا خالطه الشَّيب، ولا يُقال: شَايِب، في أصحِّ قولي أهل اللُّغة.

قال: (فَإِنَّ هِمَّةَ الصَّادِقِ لَا تَشِيبُ)؛ أي: مَنْ كان صادقًا في إرادته، فإنَّ همَّته تبقى ولا تتغيَّر.

وذكر من شواهد هَٰذَا: (كَانَ أَبُو الوَفَاءِ ٱبْنُ عَقِيلٍ - أَحَدُ أَذْكِيَاءِ العَالَمِ مِنْ فُقَهَاء الحَنَابِلَةِ - يُنْشِدُ وَهُوَ فِي الثَّمَانِينَ:

مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي ... وَلَا وَلَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي

وَإِنَّمَا ٱعْتَاضَ شَعْرِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الهِمَمِ

يعني: حقيقةُ ما صار عليه: أنَّ بعض شعرِه تغيَّر لونُه، فاتَّخذ صبغةً أخرى هي صبغة البياض.

ثمَّ قال: (وَالشَّيْبُ فِي الشَّعْرِ غَيْرُ الشَّيْبِ فِي الهِمَمِ)؛ فالشَّيْبُ فِي الشَّعْر هو ضعفٌ في البدن، وَالشَّيْبُ في الهمم هو ضعفٌ في الرُّوح، فربَّما كان العبد ضعيفًا في بدنِه، قويًّا في همَّته، وربَّما كان العبد قويًّا في بدنه، ضعيفًا في همَّته.

فالأوَّل: أشيب البدن، شاب الهمَّة، والثَّاني: شابُّ البدن، أشيب الهمَّة.

وشواهد هَٰذَا في أحوال أهل العلم كثيرةٌ، ومن أخبار أبي الفرج ٱبن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه طلب علم القراءات - الَّذي يحتاج إلى قوَّة ذِهنٍ - بعد الثَّمانين، وكان يأتي إلى حلقة المُقرِئ وٱبنه يعْزُرُه - يعني: يقوده من ضعفه -، فمن كان شابَّ الرُّوح فإنَّ قواه لا تُفقَد منه، حتَّى قوى الذَّاكرة، فربَّما تجد من هَٰؤُلَاءِ من أبناء المائة يذكر لك الأحوال أفضل ممَّا يذكره أبناء الأربعين والخمسين والسِّتِّين؛ للقوَّة الَّتي وُهِبها من قوَّة همَّته، وشِدَّة تعلُّقه بالعلم حتَّى ٱنطبعت هَٰذه المعاني في قلبه، وأمَّا أولئك فمع كونهم أقوى بدنًا؛ إلَّا أنَّ تلك المعاني لم تنطبع في قلوبهم ففاتهم إدراكها.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الرَّابِعُ
صَرْفُ الهِمَّةِ فِيهِ إِلَى عِلْمِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

إِنَّ كُلَّ عِلْمٍ نَافِعٍ مَرَدُّهُ إِلَى كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَاقِي العُلُومِ إِمَّا خَادِمٌ لَهُمَا فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا تَتَحَقَّقُ بِهِ الخِدْمَةُ، أَوْ أَجْنَبِيٌّ عَنْهُمَا فَلَا يَضُرُّ الجَهْلُ بِهِ.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عِيَاضٍ اليَحْصُبِيِّ فِي كِتَابِهِ «الإِلْمَاعِ»:

العِلْمُ فِي أَصْلَيْنِ لَا يَعْدُوهُمَا ... إِلَّا المُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِبِ

عِلْمُ الكِتَابِ وَعِلْمُ الآثَارِ الَّتِي ... قَدْ أُسْنِدَتْ عَنْ تَابِعٍ عَنْ صَاحِبِ

وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ - عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللهِ - ثُمَّ كَثُرَ الكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، فَالعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ وَالكَلَامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ.

قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: العِلْمُ اليَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟، فَقَالَ: «الكَلَامُ اليَوْمَ أَكْثَرُ، وَالعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ».

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من مقاعد تعظيم العلم؛ وهو: (**صَرْفُ الهِمَّةِ فِيهِ إِلَى عِلْمِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ**)؛ أي: إنفاقها في الطَّلب إلى علم القرآن والسُّنة؛ لأنَّ كلَّ علم نافع مردُّه إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالعلوم المبثوثة في النَّاس نوعان لا ثالث لهما:

أحدهما: علومٌ نافعةٌ.

والآخر: علومٌ غير نافعةٍ.

وما كان نافعًا من العلوم فإن مردَّه إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلًا أو فرعًا، فعلم الاعتقاد علم نافع، ومرده إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلًا، فإن القرآن والسُّنة جاءا لتقرير ما يلزم العبد من الاعتقاد الصَّحيح في أصول الإيمان.

وعلم الطِّبِّ علم نافع فرعًا، فإنَّ القرآن والسُّنة لم يُجعلا لنعت طريق علم الطب، لَـكِن ٱشتملا على ما يدل على أن هذا العلم علم ينتفع به الخلق؛ فكل علم نافع يُردُّ إلى كلام الله وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وَبَاقِي العُلُومِ إِمَّا خَادِمٌ لَهُمَا فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا تَتَحَقَّقَ بِهِ الخِدْمَةُ، أَوْ أَجْنَبِيٌّ عَنْهُمَا فَلَا يَضُرُّ الجَهْلُ بِهِ)، **فباقي العلوم سوى الكتاب والسُنة نوعان**:

أحدهما: علومٌ خادمةٌ للقرآن والسُّنة؛ كالنَّحو، وأصول الفقه، فيُؤخَذ منها ما تتحقَّق به الخدمة دون زيادةٍ - أي: يُحصَّل منها ما يعين على الانتفاع في الفهم بالقرآن والسُّنة، دون الشُّذور المُشغِلة والفروع المُطوَّلة الَّتي تُذْكَر في تلك العلوم.

والآخر: علومٌ أجنبيَّةٌ عنهما؛ كعلم الفلسفة، والسِّحر، فلا يضرُّ الجهل بها، فتلك العلوم البعيدة في نسبتها إلى الكتاب والسُّنة لا يضرُّ متعاطي العلم أن يكون بها جاهلًا؛ بل ربَّما أُمِر بالجهل فيها؛ لعدم الانتفاع بها، وحِفظًا لوقته، وجمعًا لقلبه على الأنفع.

ثمَّ ٱستحسن المصنِّف ما أنشده القاضي (عِيَاضٌ اليَحْصُبِيُّ فِي كِتَابِهِ «الإِلْمَاعِ»:

العِلْـمُ فِي أَصْـلَيْنِ لَا يَعْـــدُوهُمَا ... إِلَّا المُضِلُّ عَنِ الطَّرِيقِ اللَّاحِـبِ[1]

عِلْـمُ الكِتَـابِ وَعِلْمُ الآثَارِ الَّتِي ... قَدْ أُسْنِدَتْ عَنْ تَابِعٍ عَنْ صَاحِبِ

---

(١) أي: الواضح.

ثمَّ قال: (وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ عِلْمُ السَّلَفِ - عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللهِ - ثُمَّ كَثُرَ الكَلَامُ بَعْدَهُمْ فِيمَا لَا يَنْفَعُ، فَالعِلْمُ فِي السَّلَفِ أَكْثَرُ وَالكَلَامُ فِيمَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرُ)؛ لأنَّ علم السَّلف هو الاشتغال بالقرآن والسُّنة حِفظًا، وفهمًا، واستنباطًا، ثمَّ كثُر الكلام بعدهم فطُوِّل القول في مسائل العلم بما لا يُحتاج إليه.

(قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ: قُلْتُ لِأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ: العِلْمُ اليَوْمَ أَكْثَرُ أَوْ فِيمَا تَقَدَّمَ؟، فَقَالَ: «الكَلَامُ اليَوْمَ أَكْثَرُ، وَالعِلْمُ فِيمَا تَقَدَّمَ أَكْثَرُ»)؛ فالكلام الَّذي هو بيان النَّاس وإعراضُهم عن معاني العلم ومسائلِه أكثر فيمَنْ تأخَّر عمَّنْ تقدَّم، لَـكِنَّ العلم فيمَنْ تقدم أكثر منه فيمَنْ تأخر، فأنت تجد مثلًا تفسيرَ سفيانَ بن عيينةَ، وإذا هو يذكر كلمة واحدة - أي: جملةً واحدة - فيها من المعاني شيء عظيم يُعبَّر عنه بأنواع من القول مطوَّلة؛ كقوله الذي تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦]، قال: أحرمهم فهْم القرآن؛ فهي جملة من ثلاث كلمات، فيها من البيان والمعاني النَّافعة ما لا تجده عند كثير من المفسِّرين الذين تكلموا عن هَٰذِهِ الآية في المتأخرين، فيتحقق لك بالمُقَايَسَة بين كلامٍ متقدمٍ ومتأخرٍ في موضع واحد البونَ الشاسعَ والفرقَ العظيم بين الأوائل والأواخر، وأن العلم في الأوائل أكثر، وإن كان الكلام في الأواخر أكثر.

ولأجل ما كُسِي به كلام الأوائل من الخير صار علمهم له بركةٌ، مِمَّا يُفقَد في مقابله من كلام المتأخرين، فإنَّ كثيرًا من المتأخرين يطولُ كلامهم وتقِلُّ بركته، وأما السلف فيَقِلُّ كلامهم وتكثر بركته، قال ابن أبي العزِّ في «شرح الطحاوية»: «فلذَٰلِكَ صار كلام كثيرٍ من المتأخرين كثيرًا قليل البركة، بخلاف المتقدمين؛ فكان كلامهم قليلًا كثير البركة»، وأشار إلى هَٰذَا المعنى ابن القيم أيضًا.

فالعلم ليس بكثرته، وإنَّما ببركته؛ أي: ما تجد من الانتفاع به، وهَٰذَا المعنى صار قليلا في الناس، فتجدهم يحمدون رجلًا لأجل كثرة كلامه، ويغضون من آخر لأجل قلة كلامه، ويغفلون عن الأثر الذي يوجد من كلام هَٰذَا وكلام هَٰذَا.

فانظر ذاك الذي يُطوِّل؛ أنتفعَ به كثير أم قليل؟، وذاك الَّذي يُقِلُّ أنتفع به قليل أم كثير؟، تعرف الفرق بين علم هَٰذَا وعلم هَٰذَا، وإذا رُزِق العبد وفرةً في علمه مع بركةٍ فذَٰلِكَ خير، لَٰكِنَّ غالب مَنْ يُغرَب بالبيان يُسلَب النية الصالحة، لأن البيان يورث النَّفس عجبًا وفخرًا فتَحُولُ تلك النيَّات دون النية الصالحة، فتقِلُّ بركته في الخلْق؛ بخلاف مَنْ يقِلُّ كلامه ولاسيما مع كِبَر سِنِّه وٱنكسار نفسه، وبُعد الشيطان عنه، فإنَّه وإن كان كلامه قليلًا لَٰكِنَّ منفعته عظيمة.

وٱعتبر هَٰذَا فيمَنْ تسمع تسجيلًا له ممَّنْ مضى من العلماء أو مَنْ بقي منهم، وأنت تجد الفرق في الانتفاع منهم مع قلَّة كلامهم؛ بخلاف فُقدان هَٰذَا الانتفاع عند آخرين يتكلَّمون فيُبِينُون فيطوِّلون؛ لتعرف صحَّة مُدرَكِ العلم.

وأذكرُ ممَّا سمعتُ في زمن الطَّلب أن متكلِّمًا في العلم قال: أنصحُ الشباب ألَّا يحضروا عند الكبار، وليحضروا عند طلبة العلم الشباب؛ لأنَّ الكبار قد حطمهمُ الكِبَر فيقلُّ كلامهم، وأمَّا الشباب ففيه جذوة النَّشاط التي تحملهم على البحث فيُكثرون من مواد العلم الَّتي يُهيئون بها الدَّرس، فيجد المتلقي فوائدَ كثيرةً من كلامهم.

وهَٰذَا علمتُ بعد أنَّه مقياسٌ فاسدٌ، والحمد لله أنِّي لم أومن به حينئذٍ، فإنه ليس المقياس أن تجد كثرة المعلومات، ولكن المقياس أن توجد البركة من ذَٰلِكَ المعلِّم وإن قلَّ كلامه، وهَٰذَا في كبار العلماء الَّذين جمعوا العلم مع كِبَر السِّنِّ أحرى من غيرهم وإن قلَّ كلامهم؛ فإنَّه بقليلِ الكلام تُفتح لك البركات، ويُيَسَّر لك أخْذ العلم، بخلاف كثرة الكلام الَّذي

يصدر ممَّنْ تُفقَد منه البركة، فاجعل مطلوبك في العلم ما يورث فيك الخير والانتفاع والبركة لا كثرة المعلومات أو اختلافها.

ولمَّا كان هَٰذَا مقياسًا مُعتدًّا به - وهو النظر إلى الانتفاع والثمرة والبركة - كان أخْذ العلم مبنيًّا على أصول ثابتةٍ لا تتغير، ومن جملتها تكرار كتب لا يتحوَّلون عنها؛ لأنها الكتب التي وُجد الانتفاع والبركة بها، فلا حاجة إلى تغييرها بغيرها ممَّا يحول بين العبد وبين المنفعة الكاملة.

وتجد في النَّاس بكثرة اليوم مَنْ يعيب كثرة تكرار كتابٍ ما، ولو أنه فكَّر هَٰذَا المنهج الذي يدّعيه عمَّن أخذه؟!، فإنَّ أهل العلم في كلِّ قُطرٍ كانوا يلزمون كتبًا معيَّنة، ولم يُجعَل من طريقة العلم تغيير الكتب إلَّا في هَٰذَا الزَّمان بأخرةٍ، فكان إدراك علمٍ ما فيه كتبٌ معيَّنةٌ يدرسها الطالب، وفي علمٍ آخر كتبٌ معيَّنةٌ يدرسها الطالب، والأنفع للطالب تكرار تلك الأصول مرةً بعد مرةٍ.

وتجد في تراجم مَنْ مضى من العلماء أنهم كانوا يديمون تكرار تلك الكتب؛ حتَّى ذكرتُ لكم في بعض المجالس أن شيخنا ٱبن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أقرأَ في مدينة (الدِّلَم) - لمَّا كان منشغلًا بالتعليم أكثر ممَّا خلفه بعد ذَٰلِكَ - أقرأ «ثلاثةَ الأصول» أكثر من مائة مرة!،

وبعض الناس يقول: يكفي شرح «ثلاثة الأصول» مرة ليستفيد منها الإنسان ثم يُنقَل إلى غيرها؛ وهَٰذَا من الجهل، نعم.. يُنقَل إلى غيرها لَٰكِن ما يتركها؛ لأنها من أصول العلم النافع، والفاتحة نكرِّرها نحن في كل صلاة؛ لأنها أصل الدين النافع في باب الخبر أو في باب الطلب، فليس تكرار شيء عيبًا إلَّا في المناهج المعاصرة التي وفدت علينا من آثار ٱختلاط الحضارات فصار هذا عيباً في التعليم والإصلاح، وهو منهج حادث.

وإذا أردت الانتفاعَ في كل شيء - في علم، أو تجارة، أو معاملة الناس - فانظر إلى ما كان عليه مَنْ قبلك وٱقتدِ به، ودعْ ما يتجدد للنَّاس من الاقتراحات، فإنَّ عامَّته لا نفْع فيه؛ لأنَّه

لا يصدر من كمال عقلٍ ولا طول تجربةٍ، بخلاف مَنْ كان له طول تجربةٍ وكمال عقلٍ في علم أو عمل أو دعوة أو تجارة أو إصلاح أو ثقافة، فتجد عنده من الخبرة والفهم ما لا يوجد عند غيره.

فالزم ما تُدَلُّ عليه بهَؤُلَاءِ، واترك ما عداهم.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الخَامِسُ
سُلُوكُ الجَادَّةِ المُوصِلَةِ إِلَيْهِ

لِكُلِّ مَطْلُوبٍ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَيْهِ، فَمَنْ سَلَكَ جَادَّةَ مَطْلُوبِهِ أَوْقَفَتْهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا لَمْ يَظْفَرْ بِمَطْلُوبِهِ، وَإِنَّ لِلْعِلْمِ طَرِيقًا مَنْ أَخْطَأَهَا ضَلَّ وَلَمْ يَنَلِ المَقْصُودَ، وَرُبَّمَا أَصَابَ فَائِدَةً قَلِيلَةً مَعَ تَعَبٍ كَثِيرٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ هَذَا الطَّرِيقَ بِلَفْظٍ جَامِعٍ مَانِعٍ مُحَمَّدُ مُرْتَضَى بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّبِيدِيُّ - صَاحِبُ «تَاجِ العَرُوسِ» - فِي مَنْظُومَةٍ لَه تُسَمَّى «أَلْفِيَّةَ السَّنَدِ»، يَقُولُ فِيهَا:

فَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

فطَرِيقُ العِلْمِ وَجَادَّتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ، مَنْ أَخَذَ بِهِمَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهِ:

فَأَمَّا الأَمْرُ الأَوَّلُ: فَحِفْظُ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ، فَلَا بُدَّ مِنْ حِفْظٍ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَنَالُ العِلْمَ بِلَا حِفْظٍ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مُحَالًا.

وَالمَحْفُوظُ المُعَوَّلُ عَلَيْهِ هُوَ المَتْنُ الجَامِعُ للرَّاجِحِ؛ أَيِ المُعْتَمَدُ عِنْدَ أَهْلِ الفَنِّ.

وَأَمَّا الأَمْرُ الثَّانِي: فَأَخْذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحٍ، فَتَفْزَعُ إِلَى شَيْخٍ تَتَفَهَّمُ عَنْهُ مَعَانِيهِ، يَتَّصِفُ بِهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ:

وَأَوَّلُهُمَا: الإِفَادَةُ، وَهِيَ الأَهْلِيَّةُ فِي العِلْمِ، فَيَكُونُ مِمَّنْ عُرِفَ بِطَلَبِ العِلْمِ وَتَلَقِّيهِ حَتَّى أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِيهِ.

وَالأَصْلُ فِي هَذَا مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاودَ فِي «سُنَنِه» بِإِسْنَادٍ قَوِيٍّ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ**».

وَالعِبْرَةُ بِعُمُومِ الخِطَابِ، لَا بِخُصُوصِ المُخَاطَبِ، فَلَا يَزَالُ مِنْ مَعَالِمِ العِلْمِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْ يَأْخُذَهُ الخَالِفُ عَنِ السَّالِفِ.

أَمَّا الوَصْفُ الثَّانِي: فَهُوَ النَّصِيحَةُ، وَتَجْمَعُ مَعْنَيَيْنِ ٱثْنَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: صَلَاحِيَّةُ الشَّيْخِ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ، وَالاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ.

وَالآخَرُ: مَعْرِفَتُهُ بِطَرَائِقِ التَّعْلِيمِ، بِحَيْثُ يُحْسِنُ تَعْلِيمَ المُتَعَلِّمِ، وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَفْقَ التَّرْبِيَةِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي «المُوَافَقَاتِ».

❀ ❀ ❀

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من مقاعد تعظيم العلم؛ وهو: (**سُلُوكُ الجَادَّةِ المُوصِلَةِ إِلَيْهِ**)، والجادَّة هي: الطريق.

وٱبتدأ بيانه بقوله: (لِكُلِّ مَطْلُوبٍ طَرِيقٌ يُوصِلُ إِلَيْهِ)؛ أي: لِكُلِّ أمرٍ يروم المرء تحصيله طريقٌ تؤدِّي بسالكها إليه، قال: (فَمَنْ سَلَكَ جَادَّةَ مَطْلُوبِهِ أَوْقَفَتْهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا لَمْ يَظْفَرْ بِمَطْلُوبِهِ).

ثمَّ قال: (وَإِنَّ لِلْعِلْمِ طَرِيقًا مَنْ أَخْطَأَهَا ضَلَّ وَلَمْ يَنَلِ المَقْصُودَ، وَرُبَّمَا أَصَابَ فَائِدَةً قَلِيلَةً مَعَ تَعَبٍ كَثِيرٍ) فالحائدون - أي: المائلون - عن جادَّة العلم لا يُحصِّلون العلم، **ومَنْ سلك غير طريق العلم في طلبه فمنتهاه إلى حالين:**

أحدهما: ألَّا ينال العلم.

والآخر: أن يصيب منه حظًّا قليلًا مع تعبٍ كثيرٍ.

فإنَّك ترى فئامًا من الخلق يبتغون ٱلتماس العلم، لكِنَّهم لا يأخذون بجادَّته ولا يسلكون طريقه، فمنتهى هَٰؤُلَاءِ تارةً: إلى ألَّا ينالوا العلم؛ فينقطعوا عنه، ويملُّوه، ويصير بينهم وبينه حجابٌ كثيفٌ، وتارةً أخرى: يكون فيهم مَنْ يُحصِّل علمًا لكِن مع تعبٍ كثيرٍ، فهو ينفق وقتًا كثيرًا في طلبه، ومالًا وفيرًا في ٱلتماسه، وصحَّةً في ٱقتباسه، ثمَّ لا يرجع من ذَٰلِكَ بشيءٍ على قدر ما بذل.

وعِلَّة هَٰذَا وذاك: أنَّهما طلبا العلم بغير طريقه.

وٱعتبر هَٰذَا في حال مَنْ خرج يريد مكَّةَ، وإذا هو قد أخذ في الطريق المفضي إلى الدَّمام، فهٰذا له حالان:

أحدهما: أن يصل إلى الدَّمَّام، وإذا هي الدمام وليست مكَّةَ، فلا يرجع إلى طلب مكَّةَ، ويعود مرة أخرى إلى الرياض، فلا يُحصِّل شيئًا من الوفود على مكة.

والآخر: أن يبلغ الدَّمام فيُقال له: هَٰذِهِ الدمام وليست مكَّة، لَٰكِن مكة وراء الرِّياض من جهة الغرب، فيعود مرة أخرى حتى يصل إلى مكَّة بعد ستَّ عشرة ساعة في السفر، ثم يعتمر وهو تَعِبٌ، ثقيل النَّفس، ثم يرجع إلى الرياض، وإذا به لم يصب من الوفود على مكة إلا شيئا يسيرا من الانتفاع، فهٰذا كحال الناس في العلم.

ثمَّ بيَّن الطريق الموصِل إلى العلم في النَّعت الَّذي ذكره جماعةٌ؛ منهم: الزَّبيديُّ في «ألفيَّة السَّنَد» إذ قال:

فَمَا حَوَى الغَـايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ ... شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ ... تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

فطَرِيقُ العِلْمِ وَجَادَّتُهُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ، مَنْ أَخَذَ بِهِمَا كَانَ مُعَظِّمًا لِلْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُهُ مِنْ حَيْثُ يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهِ)، ثمَّ بيَّن هَٰذَين الأمرين فقال:

(فَأَمَّا الأَمْرُ الأَوَّلُ: فَحِفْظُ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ) - أي: متن معتمَد عند أهل الفنِّ -، (فَلَا بُدَّ مِنْ حِفْظٍ)، ولا بدَّ أن يكون محلُّ الحفظ: المتن الجامع للراجح، والمراد بكونه جامعًا للراجح: أي مُعتمَدًا عند أهل الفنِّ، **فخرج بهَذَا نوعان:**

أحدهما: مَنْ يطلب العلم ولا يحفظ.

والآخر: منْ يطلب العلم ويحفظ، لَكِن لا يشتغل بحفظ المتون المعتمدة.

فالأول مثلًا: كحال مَنْ يطلب النحو ولا يحفظ فيه متنا مختصرا أو مطولا.

والثَّاني: كحال مَنْ يطلب النحو ثم يحفظ ألفيَّة الآثاري أو الأُجهوري، أو غيرها من متون النحو الَّتي لم يقعِ ٱعتمادها، فلم يتلقَّها النَّاس بالدرس ولا بالشرح، فلا تجدها مشهورة بالتدريس، ولا تجدها ممهورة بشروح مدونة عليها أو محفوظة صوتيا كالحال التي صار عليها الناس اليوم.

ثم ذكر الأمر الثَّاني فقال: (وَأَمَّا الأَمْرُ الثَّانِي: فَأَخْذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحٍ)؛ أي: **تَلقِّيه عن رجل يجمع وصفين:**

أحدهما: الإفادة.

والآخر: النصيحة.

والمراد بـ(الإِفَادَة): (الأَهْلِيَّةُ فِي العِلْمِ)؛ أي: التَّمكُّن فيه، ومفتاح هَذَا التَّمكُّن هو المذكور في قوله: (فَيَكُونُ مِمَّنْ عُرِفَ بِطَلَبِ العِلْمِ وَتَلَقِّيهِ حَتَّى أَدْرَكَ، فَصَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِيهِ)؛ فإنَّ العبد لا يكون متأهِّلا في فن من الفنون حتَّى يتلقاه بأخذه عمَّنْ تقدمه.

والأصل في هَذَا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ يَسْمَعُ مِنْكُمْ**»).

(وَالعِبْرَةُ بِعُمُومِ الخِطَابِ) - أي: في لفظه - (لَا بِخُصُوصِ المُخَاطَبِ) - وهُمُ الصَّحابة -، (فَلَا يَزَالُ مِنْ مَعَالِمِ العِلْمِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْ يَأْخُذَهُ الخَالِفُ عَنِ السَّالِفِ)، فلا

سبيل إلى بلوغ رتبة المفيد في العلم إلَّا بأن يكون جامع العلم مُتلقِّيًا له عمَّنْ قبله، فإذا كان مُتلقِّيًا له من الكتب لم تحصل له الإفادة وإن كثُرت معلوماته فيه.

فإنَّ المفيد في علمٍ ليس هو كثير المعلومات فيه، لكِنَّ المفيد في العلم هو الحاذق فيه المقتدر على حلِّ مشكلاته ولو لم تَطْرُقْ سمْعَه من قبلُ، المتمكنُّ من فتْح مقفلاته وإن لم تُذْكَر له من قبلُ.

ولا يُحصِّله إلَّا بأن يكون قد تلقَّاه عمَّنْ قبله من أهل العلم، فإنه كما يوجد النَّاس نسبًا توجد العلوم نسبًا، فأنت منسوبٌ إلى أبٍ، وأبوك منسوب إلى أبٍ، ولو لم يكن لك أبٌ وجدٌّ لم تكن موجودًا، وكذَٰلِكَ الإفادة في العلم؛ إذا لم يكن لمعلِّمك نسبٌ في العلم بأخذِه عمَّنْ تقدَّمه، ومَنْ تقدَّمه أخَذَهُ عمَّنْ تقدَّمه فإنَّه لا وجود عنده للإفادة في العلم وإنِ ٱدَّعيت له.

فشرطُ العلم: المعرفة بالطَّلب قبلُ، قال ٱبنُ عونٍ: «لا يؤخذ العلم إلا عن مَنْ عُرِف بالطَّلب»؛ أي: شُهِر بالتماس العلم والحرص عليه، والتَّردُّد على شيوخه، والارتحال إلى غير أهل بلده لجمْع العلم، فإنَّ هَذَا يورثه الأهليَّة فيه.

ثم ذكر الوصف الثَّاني فقال: (أَمَّا الوَصْفُ الثَّانِي: فَهُوَ النَّصِيحَةُ)؛ أي: أن يكون الشيخ المعلِّم ناصحًا، قال: (وَتَجْمَعُ مَعْنَيَيْنِ ٱثْنَيْنِ):

(أَحَدُهُمَا: صَلَاحِيَّةُ الشَّيْخِ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ، وَالاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ)؛ أي: بأن يكون الشَّيخ صالحًا للاقتداء والاتِّباع والاهتداء بما هو عليه من أحوالٍ، وليس المقصود أن يكون خاليًا من الذُّنوب، فإنَّ الخلوَّ من الخطيئة مفارقٌ الآدميَّةَ؛ فكل بني آدمَ خطَّاءٌ، والله كتب على كلِّ عبدٍ نصيبَه من الذُّنوب، ولكِنَّ المرادَ هو: أن تغلب حسناتُه سيِّئاتِه.

فإنَّ ٱسم (العدل) هو: مَنْ كانت طاعاتُه أكثر من سيئاتِه. ذكره الشَّافعي وأبو حاتمٍ ٱبن حِبَّانَ في آخرين.

فإذا غلب ذَٰلِكَ عليه صار صالحًا للاقتداء، وإذا كَثُرت هَٰذِهِ الغلبة فيه صار صالحًا أكثر فأكثر، وهَٰذا يوجد - كما ذكر ٱبن قتيبةً - فيمَنْ تقدَّم به العمر من أهل العلم؛ لأنَّ نفوسَهم يحطِمُها ما مضى من عمرهم، وما ٱختلَّ من أبدانهم، فلا يكون لهم من الشَّهوات في الناس ما يوجد للشَّباب، ويكون الشيطان - لكثرة ممارستهمُ الطَّاعةَ - أَبْعَدَ عنهم ممَّنْ دونهم من الشَّباب الناهضين في العلم.

فكلَّما كبُرت سنُّ المعلِّم كان أحرى أن يوجد فيه الاهتداء والاقتداء، وأكمل الاهتداء والاقتداء هو بمَنْ مات، ولذَٰلِكَ كانت وصيةُ السَّلف به، لَٰكِن عامَّة الخلق يعجزون عن الاقتداء بمَنْ مات، ويؤثِّر فيهم الحيُّ أكثر من خبر الميت.

ثمَّ ذكر الوصف الآخر فقال: (وَالآخَرُ: مَعْرِفَتُهُ بِطَرَائِقِ التَّعْلِيمِ) - أي: تكون له بصيرةٌ في طرائق التَّعليم -، (بِحَيْثُ يُحْسِنُ تَعْلِيمَ الْمُتَعَلِّمِ، وَيَعْرِفُ مَا يَصْلُحُ لَهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَفْقَ التَّرْبِيَةِ العِلْمِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّاطِبِيُّ فِي «المُوَافَقَاتِ»)؛ فهو في تعليمه النَّاس يسلك بهم ما يصلحُونَ به، وينتفعون، ولا يُخرجه ذَٰلِكَ عمَّا ينبغي أن يكون عليه من إكرام العلم وإجلالِه؛ بل يدعوه إكرام العلم وإجلاله إلى معاملتهم بهَٰذَا.

فهو مثلًا: يشرح جملةً واحدة في جماعةٍ من المتعلمين على غيرِ نسقٍ، فربَّما شرحها لأحدهم بالسكوت عنها، فمثلاً: قرأ عليه أحدهم: (بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين)، فقال: ٱبتدأ المصنف بالبسملة، ثم أردفها بالحمدلة، ثم ثلَّث بالصَّلاة والسَّلام على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وربما قال لمتعلِّمٍ آخر - زيادةً على ما قال للأول -: ٱبتدأ المصنِّف بالبسملة ٱتباعًا للوارد في الأحاديث النَّبوية، والبسملة نحتٌ لجملةِ: (بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرحيم)، والنَّحت: لونٌ من ألوان وضْع اللُّغة عند العرب، فيقال: (البسملة) في (بسم الله الرحمن الرحيم)،

و(الحمدلة) لـ(الحمد لله)، و(الحوقلة) لـ(لا حول ولا قوة إلا بالله)، ثمَّ أتبعها بالحمد؛ وهو: الحمدلة كما تقدَّم، والحمد: هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبِّه وتعظيمه.

ثمَّ قال لثالثٍ: ٱبتدأ المصنِّف بـ(بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرحيم)، والبداءة بالبسملة ممَّا ٱتفق أهل العلم على كونه من آداب التَّصانيف، وٱختلفوا في الأدلة التي تدلُّ على ذَٰلِكَ؛ فمنهم: مَنْ جعلَ دليلَه القرآن والسُّنَّة والإجماع، ومنهم مَنْ جعل دليله السُّنَّة وفِعْلَ الصحابة في القرآن والإجماع، ثم يبيِّن له وجوه تلك الأدلَّة.

هو الشَّيخ نفسه، لكِنَّ أصحابه مختلفونَ؛ ففَارَقَ فيما يمنحهم من العلم باختلاف أحوالهم.

فالأوَّل: مبتدئ؛ فجعل له ما ينفعه.

والثاني: متوسطٌ؛ فجعل له ما ينفعه.

والثالث: منتهٍ؛ فجعل له ما ينفعه.

وربما وُجد نوعٌ رابعٌ من أصحابه: وهم البالغون الانتفاع في العلم؛ لا يبيِّن لهم هَٰذَا الكلام؛ لأنَّه ممَّا أدركوه، وإنَّما يذكر لهمُ المشكلاتِ في العلم، فربَّما يقرءون عليه كتابًا لا يعلِّق فيه إلَّا تعاليقَ يسيرةً؛ لأنَّها لهم كالمسامير في العلم، فهم يعون هَٰذَا الكتاب تفصيلًا، لَـٰكِن هناك معانٍ من العلم تخفى فينبِّههم إليها بالنَّظر إلى حالهم.

وهَٰذَا الأمر من النُّصح للمتعلِّمين ممَّا فرَّط فيه أكثر المعاصرين، فصار النُّصح لهم قليلًا، فهم لا يلاحظونهم فيما ينتفعون به، وفيما يصلُح لهم، وإنَّما جمهورهم صار يلاحظ ما يصلح لنفسه، وهَٰذَا شيءٌ لا نقوله من نسج الخيال، ولا يخفى عليكم في واقع الحال، بل رأينا قِصصا وأحوالا يندى لها الجبين من حال بعض المعلمين.

وأذكرُ من عجيب ما وقع في حال سابقةٍ: أنَّ صاحبًا لي حدَّثني وهو يقرأ عند أحد المشايخ: أنَّ شابا جاء إليه – أي إلى الشيخ - وقال له: أحسن الله إليك، أنا أحبُّ أن أقرأ

عليكم في الحديث، فقال له: ماذا تحب أن تقرأ؟، فقال: ماذا ترى يا شيخ؟، قال: «مسندُ الإمام أحمد»، طبعَتْهُ مؤسَّسة الرسالة طبعة جديدة، وبودِّنا أن نطَّلع على هَٰذِهِ الطبعة، فهات معك «مسند الإمام أحمد» طبعة الرسالة. قال محدِّثي: وهَٰذَا الشاب لم يقرأ في الحديث قبل حتَّى «الأربعين النووية»!، فهل هَٰذَا من النصح له؟!

الجواب: لا، هَٰذَا من الغشِّ له.

ولم يكن النَّاس على هَٰذَا؛ بل إذا جاءهم الطَّالب سألوه: ماذا قرأت؟، ثم نظروا في حاله، ورَقُّوه باعتبار ما يصلح له وبه.

ومن شواهد هَٰذَا فيما مضى أنَّ شيخنا فهدَ بن حُمَيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا وفد من (الزُّلْفِي) إلى الرياض على شيخه محمَّد بن إبراهيمَ وعانى في السَّفر مشقة عظيمة، فلما ٱنتهى إلى شيخه مع مشقَّة السفر ولهفةِ النَّفس وسلَّم على الشيخ، قال له: أحسن الله إليك، أنا فلان وجئت من كذا، وأحب أن أقرأ عليك في العلم، قال له: هل تحفظ القرآن يا ولدي؟، قال: لا، قال: إذًا الآن ٱشتغل بحفظ القرآن، فإذا حفظتَ القرآن فأنا موجود تعال وٱقرأ عليَّ العلم.

ٱنظر كيف؟!، هو تعبان، وقادم من الزُّلفي، ونفسه تتلهَّف إلى دراسة العلم، لَـٰكِن نقله إلى الأنفع له، وَجَدَه شابًّا صغيرا يمكنه أن يستدرك نفسه في العلم، فإنَّ حفظ القرآن مع العلم له قواعدُ، فحملَه على الأنفع له، فحفظ الشيخ فهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ القرآن في ستَّة أشهر، وٱتَّفق له أنَّه حفظ سورة الأنعام بعد صلاة العصر إلى المغرب، فإنَّه ٱتخذ له خَلْوةً في أعلى مسجد الشَّيخ في أماكن الطَّلبة، جعلها لحفظ القرآن الكريم، ثم بعد ذَٰلِكَ نزل إلى الأخذ عن الشيخ، فلازمه ٱثنين وعشرين سنة!

لعلَّ الَّذي جعله يلازمه ٱثنين وعشرين سنة هو تلك الرَّدَّة، حملَهُ على الأنفعِ، فوفَّقه الله إلى الأمتع.

والشَّيخ صالح الأطرم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٱبتدأ على الشَّيخ محمد بن إبراهيمَ يقرأ عليه، فقرأَ عليه «ثلاثة الأصول»، ثم قرأ عليه بعد ذَٰلِكَ «شروط الصلاة وأركانها وواجباتها»، ثم قرأ عليه بعد ذَٰلِكَ «الأربعين النووية»، ثم قرأ عليه بعد ذَٰلِكَ «كتاب التوحيد، ثم قرأ عليه «العقيدة الواسطية»، فلما ٱبتدأ يقرأها - يعني من حفظه - لَحَن في أوَّلها، فقال له الشَّيخ محمد: لا يا صالح، ما يصلحُ، لازم الآن تقرأ «الآجرَّامية» ثم بعد ذَٰلِكَ نرجع إلى «الواسطية»، فدرَّسه «الآجرَّامية» ثم بعد ذَٰلِكَ رجع مرَّة أخرى إلى «الواسطية»؛ لأنَّه يلاحظ ما ينفع هَٰذَا الطَّالب، ما يلاحظ ما ينفعه هو.

فلمَّا كان الناس على هَٰذَا الأصل- متعلمين ومشايخ - وُجد الانتفاع بالعلم، ثمَّ لما غاب هَٰذَا وذهبت النَّصيحة - أو قلَّت - في النَّاس ذهب العلم من النَّاس، فالقدرة على العلم موجودة في النفوس، لكِنَّ الاهتداء إلى الطريق الذي ذكره بقوله:

بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

صار قليلًا في الناس.

فمَنْ أراد العلم فليسلك هَٰذِهِ الجادَّة الَّتي أرشد إليها الزَّبيديُّ، وقبله جماعةٌ وبعده جماعةٌ، لكِنَّه سلكها في بيتين من الشعر، فقال:

فَمَا حَوَى الغَايَةَ فِي أَلْفِ سَنَهْ شَخْصٌ فَخُذْ مِنْ كُلِّ فَنٍّ أَحْسَنَهْ
بِحِفْظِ مَتْنٍ جَامِعٍ لِلرَّاجِحِ تَأْخُذُهُ عَلَى مُفِيدٍ نَاصِحِ

بعد ذَٰلِكَ قال:

ثُمَّ مَعَ المُدَّةِ فَابْحَثْ عَنْهُ حَقِّقْ وَدَقِّقْ مَا ٱسْتُمِدَّ مِنْهُ

وهَٰذِهِ حالٌ تكون بعد حال التلقِّي للعلم[1].

---

(١) هنا تمام المجلس الأوَّل، وكان ذَٰلِكَ ليلة الخميس الخامِسِ وَالعِشْرِينَ من شهر ذي الحجَّة سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلاثِينَ بَعْدَ الأَرْبَعِمِائَةِ وَالأَلْفِ.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ السَّادِسُ
رِعَايَةُ فُنُونِهِ فِي الأَخْذِ، وَتقْدِيمُ الأهمِّ فالمهمِّ

قَالَ ٱبْنُ الجَوْزِيِّ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: «جَمْعُ العُلُومِ مَمْدُوحٌ».

مِـــنْ كُـلِّ فنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِـهِ ... فَالحُـرُّ مُطَّلِـــعٌ عَـلَى الأَسْـــرارِ

وَيَقُولُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ ٱبْنُ مَانِعٍ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ»: «وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَنْ يَتْرُكَ عِلْمًا مِنَ العُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، إِذَا كَان يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى تَعَلُّمِهِ، وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ العِلْمَ الَّذِي يَجْهَلَهُ وَيُزْرِيَ بِعَالِمِهِ؛ فَإِنَّ هٰذَا نَقْصٌ وَرَذِيلَةٌ، فَالعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ، وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ القَائِلِ:

أَتَـــانِي أَنَّ سَـــهْلًا ذَمَّ جَهْـــلَا ... عُلُـــومًا لَيْـسَ يَعْرِفُهُـنَّ سَهْـلُ

عُلُـــومًا لَـوْ قَرَاهَا مَـا قَـــلَاهَا ... وَلَـٰكِـنَّ الرِّضَـا بِالجَـهْلِ سَـــهْلُ

ٱنْتَهَى كَلَامُهُ.

وإِنَّما تَنْفَعُ رِعَايَةُ فُنُونِ العِلْمِ بِاعْتِمَادِ أَصْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَقْدِيمُ الأَهَمِّ فَالمُهِمِّ، مِمَّا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ المُتَعَلِّمُ فِي القِيَامِ بِوَظَائِفِ العُبُودِيَّةِ للهِ.

وَالآخَرُ: أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي أَوَّلِ طَلَبِهِ تَحْصِيلَ مُخْتَصَرٍ فِي كُلِّ فَنٍّ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَكْمَلَ أَنْوَاعَ العُلُومِ النَّافِعَةِ نَظَرَ إِلَى مَا وَافَقَ طَبْعَهُ مِنْهَا وَآنَس مِنْ نَفْسِهِ قُدْرَةً عَلَيْهِ، فَتَبَحَّرَ فِيهِ، سَوَاءٌ كَانَ فَنًّا وَاحِدًا أَمْ أَكْثَرَ.

وَمِنْ طَيَّارِ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ:

وَإِنْ تُـــرِدْ تَحْـــصِيلَ فَـــنٍّ تَمِّـــمَهْ ... وَعَـــنْ سِوَاهُ قَبْـلَ الِانْتِهَـاءِ مَـهْ

وَفِي تَـــرَادُفِ العُلُومِ المَنْعُ جَا ... إِنْ تَـــوْأَمَانِ ٱسْتَـــبَقَا لَـنْ يَخْـــرُجَا

وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ القُدْرَةَ عَلَى الجَمْعِ جَمَعَ، وَكَانَتْ حَالُهُ ٱسْتِثْنَاءً مِنَ العُمُومِ.

❀ ❀ ❀

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**رِعَايَةُ فُنُونِهِ فِي الأَخْذِ، وَتَقْدِيمُ الأهمِّ فالمهمِّ**)، والمراد بـ(رعاية فنونه في الأخذ): الاعتناءُ بها، والإقبالُ عليها، فيرصد المتعلِّم فنون العلم ويحصيها، ثمَّ يُقبِل عليها واحدا واحدا، ولا يحصُر إقباله على فنٍّ دون آخر، ثمَّ يرعى تقديم الأهمِّ فالمهمِّ، فيُقَدِّم الأعلى رتبةً ثم يتبِعُه ما دونه.

وٱبتدأ بيان هَذَا المعقد بقول (ٱبْنِ الجَوْزِيِّ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: «جَمْعُ العُلُومِ مَمْدُوحٌ»)؛ أي: الأخذ بأطراف العلوم، والاطِّلاع على أنواعها، فممَّا يُمدح ويُحمَد للمتعلِّم أن يكون له هَذَا طِّلاعٌ على أنواع العلوم ومعرفةٌ بها؛ لأنَّ العلم لا يَنفُقُ في صنعته ولا يرتفع في أخذه إلَّا مَنْ أصابَ من كلِّ فنٍّ حظًّا.

فعلوم هَـٰذِهِ الملَّة الإسلاميَّة مرتبطٌ بعضُها دون بعضٍ، ولا يُتصوَّر أن يدرِك البُغيَةَ من تلك العلوم مَنْ يحبِس نفسَه على واحدٍ منها؛ فالفقيه الَّذي يروم منزلة الفقه العالية لا يصل إليها إن كان خِلوًا من علومٍ نافعةٍ كأصول الفقه، وقواعده، ومقاصد الشَّرع... إلى أنواع العلوم ذات الصِّلة بفنِّ الفقه.

ثمَّ أتبعَه ببيتٍ مشهورٍ هو لابن الورديِّ إذ قال فيه:

مِـــنْ كُـلِّ فنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِـهِ فَالحُـرُّ مُطَّلِـــعٌ عَـلَى الأَسْـــرارِ

أي: نفسُ الحرِّ تأبَى أن تقفَ دون الاطِّلاع على ما ينفعُها، فإنَّ الحرَّ إذا ذُكِر له شيءٌ ينتفع به تطلَّعت نفسُه إليه، ومن جملة حال الحرِّ في العلم أن يكون حريصًا على أنواع العلوم، راغبًا فيها، متطلِّعًا إلى معرفتها.

ثم ذكر قول شيخ شيوخنا محمَّد بن عبد العزيز بن مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب له ماتعٍ؛ ٱسمُه «إرشاد الطُّلَّاب»، وهو من الكتب النَّافعة في توجيه مقتبسي العلم وملتمسِيه؛ فلا يستغني طالبُ العلم عن مطالعة هَذَا الكتاب، والانتفاع بما فيه من النُّصح والبيان.

ومن جملتِه المذكور هنا إذ قال: («وَلَا يَنْبَغِي لِلْفَاضِلِ أَنْ يَتْرُكَ عِلْمًا مِنَ العُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى فَهْمِ الكِتَابِ وَالسُّنَّة، إِذَا كَان يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى تَعَلُّمِهِ، وَلَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ العِلْمَ الَّذِي يَجْهَلَهُ وَيُزْرِيَ بِعَالِمِهِ؛ فَإِنَّ هٰذَا نَقَصٌ وَرَذِيلَةٌ)؛ فذَكَر أنَّه لا ينبغي لذي الفضل أن يترك شيئًا من العلوم المُعِينة على فهْم الكتاب والسُّنة؛ لافتقاره إليها في الحال الَّتي وصف في قوله: (إِذَا كَان يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى تَعَلُّمِهِ)؛ أي: إذا وجد من نفسه قدرةً على فهْمه، فإنَّ مدارك الخلق تتفاوتُ، وكم من ٱمرئٍ يُفتَح له في علمٍ، ويُغلَق عليه علمٌ آخر.

والمتعلِّمون يبلغون هَذَا بإرشاد مشايخهم؛ فإنَّ الشَّيخ المعلِّم يلحظ في حال المتعلِّم صلاحيته لهَذَا العلم، وقدرته عليه أو قعوده عنه، فإمَّا أن يُمْضِيَه فيه، وإمَّا أن يحوِّلَه إلى علمٍ آخر أنفع له.

ثمَّ ذكر من نُصحه أنَّه (لَا يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَعِيبَ العِلْمَ الَّذِي يَجْهَلَهُ وَيُزْرِيَ بِعَالِمِهِ)؛ فإنَّ من آفاتِ المشتغلين بالعلم أنَّ أحدَهم إذا جهل علمًا وقعد عن إدراكه عابَهُ وعابَ أهلَه، وأزرى عليهم، وهَذَا من عِلل المعلمين، فتجد بارعًا في الفقه وأصوله، فإذا ذُكِر له الحديث وليست له يدٌ فيه ولا معرفةٌ به؛ أزرى على المشتغلين به، فقال: هم يشتغلون بأمرٍ قد فُرِغ منه، فإن الأحاديث تكلَّم فيها الحفَّاظ تصحيحًا وتضعيفًا، وإنَّ الرواة تكلَّم فيهمُ النُّقَّاد جرحًا وتعديلًا؛ فيُزري على ذلك العلم ويعيبه، وهَذَا - كما قال - (نَقَصٌ وَرَذِيلَةٌ)، فإنَّ الجادَّة التي

ينبغي سلوكها هي ما أرشد إليه بقوله: (فَالعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ)؛ أي: مَنْ كان عاقلًا فأراد أن يتكلَّم في شيء فإنَّه إمَّا أن يتكلَّم بعلمٍ، وإذا تكلَّم بعلمٍ حَمَلَهُ العلم على رِفْعة رتبة ذَٰلِكَ العلم والإشادة به، فإنَّه لا يمكن لِمَنْ تعاطَى علمًا من العلوم الشَّرعية، وكان ذا بصيرةٍ في العلم أن يرى شيئًا من تلك العلوم نقصًا وعيبًا، فالضَّليع في الفقه لا يُزري على الحديث وأهله، والمُحدِّث البالغ المُكنة في الحديث لا يُزري على الفقه وأهله، وإنَّما يكون الإزراء ممَّنْ نقُص علمه أو عقله، ولذَٰلِكَ قال: (يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِعِلْمٍ أَوْ يَسْكُتَ بِحِلْمٍ)؛ يعني: يدعوه عقلُه إلى أن يسكتَ عن القولِ في شيءٍ لم يبلغْه علمُه.

ومن هنا قال الشَّعبيُّ: «نِعمَ وزيرُ العلمِ العقلُ»، فإنَّ العبد إذا حاز علمًا وجمع إليه عقلًا ٱنتفع ٱنتفاعًا عظيمًا، فإنَّ العلمَ بمنزلة المَلِك الَّذي يُدبِّر، والعقلَ بمنزلة الوزيرِ الَّذي يُعين ويشير، فإذا كان له علمٌ كاملٌ وعقلٌ نافذٌ أرشده العقل إلى ما ينفعه، فالَّذي يكون متمكِّنًا من علمٍ من العلوم ثمَّ يُذْكَر له علمٌ آخر لا يدَ له فيه فإمَّا أن يتكلَّم بعلمٍ، فيعرف لِهَٰذَا العلم رتبتَه، أو يسكتَ بحلمٍ، فلا يدعوه عقله إلى أن يعيب علمًا من العلوم المعتد بها.

ثمَّ قال: (وَإِلَّا دَخَلَ تَحْتَ قَوْلِ القَائِلِ:

أَتَـانِي أَنَّ سَـهْلًا ذَمَّ جَهْـلا ... عُلُـومًا لَيْـسَ يَعْرِفُهُـنَّ سَهْـلُ

عُلُـومًا لَـوْ قَرَاهَا مَـا قَـلَاهَا ... وَلَـٰكِـنَّ الرِّضَـا بِالجَـهْلِ سَـهْلُ

وقوله: (أَتَـانِي)؛ أي: بلغني.

وقوله: (ذَمَّ جَهْـلا عُلُـومًا)؛ أي: ذم علومًا لجهله بها.

وقوله: (عُلُـومًا لَـوْ قَرَاهَا)؛ أي: لو تلقَّاها بالقراءة على الشُّيوخ؛ فاسم (القراءة) في عُرف المتقدِّمين: لِمَا يُتَلقَّى عن الشُّيوخ.

وقوله: (مَـا قَـــلَاهَا)؛ أي: ما أبغضها؛ لأنَّ من البُغض ما ينشأ من الجهل، ومن مأثورِ القولِ: «مَنْ جَهِل شيئًا أنكره وعاداه». قاله الوزير خالد البَرمكيُّ، وبعده الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

فالعبد إذا جَهِل شيئًا أنكره ونصب له العداوة، سواءً في أعيان الخلق أو في معاني المعارف والعلوم.

وهو يريد بهَذين البيتين: الخبرَ عن رجل ٱسمه: سهل، تكلَّم بالذمِّ في جملةٍ من العلوم الَّتي يتعاطاها الخلق، وبيَّن أن منشأ كلامه في ذمِّ تلك العلوم نَبَتَ من جهله بها، فهو لم يتلقَّاها عن الأشياخ، فلمَّا قعد عن تلقِّيها وعزَبَ عنه علمه بها أنكرَ تلك العلوم وذمَّها وقلاها - أي: أبغضها -، وحقيقة حاله كما قال: (وَلَـٰكِـنَّ الرِّضَـا بِالجَـهْلِ سَـــهْـلُ)؛ أي: يُهوِّن على المتكلِّم كلامَه الذي تكلَّم به في ذمِّ تلك العلوم رضاه بالجهل، فهو راضٍ بالجهل الَّذي دعاه إلى بُغض تلك العلوم.

ثمَّ ذكر أنَّ (رِعَايَةَ فُنُونِ العِلْمِ) (تَنْفَعُ بِاعْتِمَادِ أَصْلَيْنِ):

(أَحَدُهُمَا: تَقْدِيمُ الأَهَمِّ فَالمُهِمِّ)؛ أي: تقديم ما تشتدُّ إليه الحاجة.

والحاجة المطلوبة هنا: هي وظائفُ العبوديَّة لله.

فيقدِّم من العلم الَّذي يلتمسُه ما يحتاجُه في القيام لله بما عليه من العبادة، فهو يرى أنَّ تعلُّم ما يتعلَّق بالإيمان وتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ مُقدَّمٌ عنده؛ لشدَّة حاجته إليه، فإذا حصَّل أصلًا في توحيد الله توجَّه إلى طلب أصلٍ آخر من العلم في معرفة الطَّهارة والصَّلاة، ثمَّ طلب ما بعده، فالمقصود بـ(المهمِّ الَّذي تقدمه) هو نَظَرُك إلى ما يلزمك في وظائف العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ.

فمن الجهل المُبين، والغَبن المستَبين أن يعدِل ملتمس العلم عمَّا يلزمه في وظائف العبودية لله إلى شيءٍ لا يلزمه بعد، كأن يُدرِك حظًّا ممَّا نعتنا من معرفة توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وما يتَّصل

بالصَّلاة والطَّهارة من أحكامٍ، ثمَّ تتشوَّف نفسُه إلى دراسة أصولِ الفقهِ أو النَّحو أو غير ذَٰلِكَ، مُهمِلًا ما هو به أولى من معرفة معاني الفاتحة الَّتي يقرؤها وجوبًا في كلِّ صلاةٍ، وإتقانِ قراءتِها، أو معرفة أذكار الصَّباح والمساء، أو معرفةِ ما يقول من الأذكار في أدبارِ الصَّلوات المكتوبات، فإنَّ هَٰذَا تضييع لهَٰذَا الأصل، وهو: تقديم الأهمِّ فالمهمِّ.

فممَّا تنتفع به في العلم: أن تُقَدِّم الأهمَّ الَّذي يلزمك في وظائف العبودية، وتؤجِّل غيرَه إلى زمنه الصَّالحِ له، ولا يستطيع المتعلِّم أن يستقل بمعرفة ذَٰلِكَ، فهو مفتقر إلى مرشدٍ يرشده.

وكانت من وظائف المعلِّمين فيما سلف: إرشادُ المتعلِّمين،فلم يكنِ المُعلِّم يحبِس نفسَه في صلته مع المتعلِّم على إلقاء العلم إليه فحسب؛ بل هو بمنزلة الوالدِ الرَّؤوف به، الَّذي يتلمَّس له ما يصلح له، ثمَّ يرشده إليه.

فينبغي أن ينتبَّه المتعلِّم إلى هَٰذِهِ الحال، وهو أن يقدِّم ما يلزمه بوظائف العبوديَّة، ويجب على المعلِّمين أن يرعوا هَٰذَا في إرشادهم وتعليمهم ودلالتهم على الخير.

والأصل الآخر: (أَنْ يَكُونَ قَصْدُهُ فِي أَوَّلِ طَلَبِهِ تَحْصِيلَ مُخْتَصَرٍ فِي كُلِّ فَنٍّ)؛ فيعمَد إلى كل فن من الفنون المتعارَف عليها في الاعتقاد والحديث، والتفسير، والفقه، والنحو، والأصول، ومصطلح الحديث وأشباهها، فيتلقى فيه مُختصرًا على الوجه الذي تقدَّم؛ من حِرْصه على حفظه، وفهْم معانيه.

قال: (حَتَّى إِذَا ٱسْتَكْمَلَ أَنْوَاعَ العُلُومِ النَّافِعَةِ نَظَرَ إِلَى مَا وَافَق طَبْعَهُ مِنْهَا وَآنَس مِنْ نَفْسِهِ قُدْرَةً عَلَيْهِ، فَتبَحَّرَ فِيهِ، سَوَاءٌ كَانَ فَنًّا وَاحِدًا أَمْ أَكْثَرَ)، فإذا فرغ من هَٰذِهِ الرُّتبة وهي: تحصيل متنٍ مختصرٍ في الفنون المتعارف عليها، نظر بعد ذَٰلِكَ إلى حاله من تلك الفنون، فإذا وجد أُنْسَه بواحدٍ منها أو أكثرَ وقدرتِه عليه قدَّمه هو وغيره على غيرهما.

فلو قُدِّر أنَّ أحدًا تعاطى العلوم فأدرك منها مختصراتها حِفظًا وفهْمًا، ثمَّ وجد في نفسه محبَّةً وميلًا إلى التَّفسير، وقوَّةً عليه مع رغبةٍ في العلوم التي تعين عليه؛ كعلوم العربية، وعلوم

القرآن ونحوها، فآثَرَها على بقيَّة العلوم كان هَٰذَا محمودًا، فإنَّ الناس في المعارك العاليَةِ لا يستوون، والنَّابغ الَّذي يُحصِّل مدارك العلوم لا يكون في النَّاس سوى الواحد بعد الواحد في مُدَدٍ متطاولةٍ، لَٰكِنَّ القدر الذي يجتمع فيه الخلق هو حِرْصهم على تحصيل أصول العلوم، ثم إذا وجد في نفسه بعد ذَٰلِكَ محبَّةً لشيء منها - فنٍّ أو أكثر - وقُدرةً عليه نقل نفسه إلى هَٰذَا.

قال: (وَمِنْ طَيَّارِ شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ قَوْلُ أَحَدِهِمْ:

وَإِنْ تُـرِدْ تَحْـصِيلَ فَـنٍّ تَمِّـمَهْ وَعَـنْ سِوَاهُ قَبْلَ الِانْتِهَـاءِ مَـهْ

وَفِـي تَـرَادُفِ العُلُومِ المَنْعُ جَا إِنْ تَـوْأَمَانِ ٱسْتَـبَقَا لَـنْ يَخْـرُجَا

ومعنى قوله: (طَيَّار شِعْرِ الشَّنَاقِطَةِ)؛ الطيَّار من الشعر: ما لا يُعرَف قائله مع شهرته، وإلى ذلك أشرت بقولي:

وشائِـعُ الأبيـات إن لم يُعلَـمِ قائلُه الطَّـيَّار بينَ الأمَـمِ

فالشِّعر الطَّيَّار هو الشِّعر الذي يسير بين الناس ولا يُعرَف قائله.

وفي هَٰذَين البيتين الإرشاد إلى جادَّةٍ نافعةٍ في العلم، فقال:

(وَإِنْ تُـرِدْ تَحْـصِيلَ فَـنٍّ تَمِّـمَهْ)؛ يعني: أتِمَّه.

(وَعَـنْ سِوَاهُ قَبْلَ الِانْتِهَـاءِ مَـهْ): وهي كلمة زجرٍ؛ أي: أزْجِر نفسك مانعًا لها عن الدُّخول في غيره قبل تتميمه.

(وَفِـي تَـرَادُفِ العُلُومِ المَنْعُ جَا)؛ أي: في جمع العلوم مترادفةً جاء المنعُ.

(إِنْ تَـوْأَمَانِ ٱسْتَـبَقَا لَـنْ يَخْـرُجَا): مُشَبِّهًا هَٰذِهِ الحال بحال ٱمرأةٍ تضع توأمين - أي: ٱثنين - فاستقبا - أي: ٱزدحما - على الخروج من بطن أمِّهما، فيعسُر خروجهما وتتعسَّر الولادة على أمِّهما، فكما يشقُّ على المرأة خروج التَّوأم إذا ٱزدحما وتحتاج إلى معونةٍ؛ فكذَٰلِكَ فإنَّ جمْع العلوم على الذِّهن يجعله مزدحمًا، وربما ٱنقطع عن العلم، وفسَد عليه فهْمه لازدحام العلوم فيه.

ومن المقولات السائرة في هَٰذَا الباب قولهم: «ٱزدحام العلوم مضِلَّة الفهم»؛ أي يحصل بسببه خطإٍ في الفهم، فإذا ٱزدحمتِ العلوم تشوَّش فهْمُ المتلقِّي، فالجادَّة السَّوية أن يجمع المتعلِّم نفسَه على متنٍ أو فنٍّ لا يشاركه غيره، فإذا أراد – مثلًا – أن يقرأَ «ثلاثة الأصول» لم يقرأ غيره في زمنه، فاشتغلَ بضبط هَٰذَا المتن حتَّى يفرغ منه، ثم ٱنتقل إلى غيره، وهَٰذِهِ طريقة المشارقة.

وأما المغاربة: فعندهم ما هو أشد من ذَٰلِكَ؛ فإنَّهم يمنعون الجمع بين الفنون، فيحبس المتعلم نفسه على علمٍ واحدٍ حتَّى يُتِمَّه، فلو قُدِّر أنَّه أراد أن يدرس المعتقَد قدَّم «ثلاثة الأصول»، ثم أتبعه بـ«كتاب التوحيد»، ثم أتبعه بـ«القواعد الأربع»، ثم أتبعه بـ«كشف الشبهات»، ثم أتبعه بـ«العقيدة الواسطية»، إلى تمام سُلَّم التَّعليم في الاعتقاد، حتَّى يفرَغ من علم الاعتقاد، ثم ينتقل إلى ما بعدها.

وطريقة المشارقَة أرفقُ بالطَّالب وأنفع في وظائف العبوديَّة؛ فإنه لا ينبغي حبس المتعلم على فنٍ واحدٍ مدَّةً تصل إلى سنةٍ مع إهمالِه ما يلزمه في وظائف عبوديَّته من ٱعتقاده وطهارته وصلاته وذِكْره لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثمَّ ختم بقوله: (وَمَنْ عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ القُدْرَةَ عَلَى الجَمْعِ جَمَعَ، وَكَانَتْ حَالُهُ ٱسْتِثْنَاءً مِنَ العُمُومِ)؛ أي: مَنْ وجد قدرةً على الجمع فإنَّه يجمع بينها، ويكون حاله ٱسْتِثْنَاءً من العموم، فالأصل في الخلق الاستقلال بفنٍّ واحد أو كتاب واحد.

وإن وُجِد منهم مَنْ له قُدرة فأرشده مُعلِّمه إلى ما ينفعه فإنَّه يسلك هَٰذِهِ السبيل، وهَٰذا الأمر شيءٌ نسبيٌّ يختلف فيه النَّاس، ولا يعرف المتعلِّم ما يصلح له؛ بل لا بدَّ له من مرشدٍ يُرشده، ولمَّا ٱضطرب نسق التعليم وٱزدحمت أموره حصل الخلل في المتعلمين، لَٰكِن ينبغي أن يجتهد طالب العلم على سلوك هَٰذِهِ الجادة، فإنَّها أنفع له في العلم وإن طالت.

فإنَّ من المتعلمين مَنْ يُحدِّث نفسه الآن: إذا جمعتُ نفسي على كتاب «ثلاثة الأصول» فبقيتُ فيه شهرين، فإنِّي أُضيّع بُرهةً من وقتي لا أنتفع بها؛ وهَٰذا بناءٌ خطأٌ، بل جمْعُه نفسه على كتابٍ واحدٍ بإتقانه حفظًا وفهْمًا هو أسهل له في أخْذ العلم، فإنَّ الذي يُكثِر على نفسه في المزاحمة يضيع عليه وقته، فيقلُّ حظُّه من الحفظ والفهم.

قال المصنف وفَّقه الله:

المعقد السَّابعُ
المُبَادَرَةُ إِلَى تَحْصِيلِهِ، وَاغْتِنَامِ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ

قَالَ أَحْمَدُ: «مَا شَبَّهتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ».

وَالعِلْمُ فِي سِنِّ الشَّبَابِ أَسْرَعُ إِلَى النَّفْسِ، وَأَقْوَى تَعُلُّقًا وَلُصُوقًا.

قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «العِلْمُ فِي الصِّغَرِ؛ كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ».

فَقُوَّةُ بَقَاءِ العِلْمِ فِي الصِّغَرِ كَقُوَّةِ بَقَاءِ النَّقْشِ فِي الحَجَرِ، **فَمَنِ اغْتَنَمَ شَبَابَهُ نَالَ إِرْبَهُ، وَحَمِدَ عِنْدَ مَشِيبِهِ سُرَاهُ.**

أَلَا اغْتَنِمْ سِنَّ الشَّبَابِ يَا فَتَى ... عِنْدَ المَشِيبِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى

وَلَا يُتَوَهَّمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الكَبِيرَ لَا يَتَعَلَّمُ، بَلْ هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا كِبَارًا؛ ذَكَرَهُ البُخَارِي فِي (كِتَابِ العِلْمِ) مِنْ «صَحِيحِهِ»، وَإِنَّمَا يَعْسُرُ التَّعَلُّمُ فِي الكِبَرِ - كَمَا بَيَّنَهُ المَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ» - لِكَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ، وَغَلَبَةِ القَوَاطِعِ، وَتَكَاثُرِ العَلَائِقِ؛ فَمَنْ قَدِرَ عَلَى دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَدْرَكَ العِلْمَ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**المُبَادَرَةُ إِلَى تَحْصِيلِهِ**) - أي: المسارعة إلى تحصيله -، (**وَاغْتِنَامِ سِنِّ الصِّبَا وَالشَّبَابِ**) أي: اهتبال سنِّ الصِّبا والشباب غنيمةً في طلبه.

ثم ذكر قولَ الإمام (أَحْمَد: «مَا شَبَّهتُ الشَّبَابَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَانَ فِي كُمِّي فَسَقَطَ»)؛ أي: ما أعدُّ شبيهًا لسنِّ الشَّباب التي كنت فيها إلَّا كشيء كان في كُمِّي – أي: في طرف ثوبي من أسفل اليد – كان فيه مُدَّة ثمَّ سقط منه، فهو سريع التَّقضِّي، عَجِلُ الذَّهاب.

ثم قال: (وَالعِلْمُ فِي سِنِّ الشَّبَابِ أَسْرَعُ إِلَى النَّفْسِ، وَأَقْوَى تَعُلُّقًا وَلُصُوقًا)؛ لفراغ القلب من المُشغلات، فإنَّ القلب إذا فرغ من المُشغلات صفا، فإذا صار صافيًا أمكن أن يعْلَقَ به ما ينفعه من العلم.

(قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «العِلْمُ فِي الصِّغَرِ؛ كَالنَّقْشِ فِي الحَجَرِ»)؛ أي: هو بمنزلة النقش في الحجر قوةً وثبوتًا، فإنَّ الحجر إذا نُقِش فيه ثبت النقش فيه أكثر من ثباته في غيره.

قال: (فَقُوَّةُ بَقَاءِ العِلْمِ فِي الصِّغَرِ كَقُوَّةِ بَقَاءِ النَّقْشِ فِي الحَجَرِ، **فَمَنِ اغْتَنَمَ شَبَابَهُ نَالَ إِرْبَهُ**) – أي: بُغيتَه وحاجتَه – (**وَحَمِدَ عِنْدَ مَشِيبِهِ سُرَاهُ**)؛ أي: حَمِد عند مخالطَتِه كهولةَ العمر بظهور الشيب فيه سُراه – أي: سعيَه مجتهدًا –، وأصل السُّرى: المسير في آخر اللَّيل، يقال: (سرى فلان): خبرًا عن اجتهاده ونشاطه.

ثم أنشد بيتًا له قال فيه:

أَلَا اغْتَنِمْ سِنَّ الشَّبَابِ يَا فَتَى ... عِنْدَ المَشِيبِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى

أي: إذا بلغوا سن المشيب فرِحوا بما حصَّلوا من العلم لما اجتهدوا في حال الشباب.

ثمَّ دفع تَوَهُّما يلُوح كثيرًا في خيال كبار السِّنِّ ممَّنْ يروم تحصيل العلم، وهو أنهم لا يُدرِكون العلم، فقد صاروا في منأًى عنه؛ فقال: (وَلَا يُتَوَهَّمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ الكَبِيرَ لَا يَتَعَلَّمُ، بَلْ هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَلَّمُوا كِبَارًا؛ ذَكَرَهُ البُخَارِي فِي (كِتَابِ العِلْمِ) مِنْ «صَحِيحِهِ»)؛ فجمْعُ العلم وتحصيلُه والنُّبوغ فيه ممكنٌ للكبير، غير متعذِّرٍ عليه؛ متى أقبل عليه وعظُم اجتهادُه فيه، ففي أخبار كثيرٍ من أهل العلم أنَّهم لم يطلبوا العلم إلَّا في عُمُر متأخرة، ثم صاروا من البارعين فيه، كالقفَّال الشَّافعي صاحب التَّصانيف المشهورة في

الفقه، فإنه تأخَّر أخْذه العلم حتَّى دخل الكِبَر وجاوز الأربعين أو أكثر، ثمَّ برع في العلم حتى صنَّف فيه وأُشير إليه في العلم.

ثمَّ بيَّن ما يحول بين الكبير والعلم فقال: (وَإِنَّمَا يَعْسُرُ التَّعَلُّمُ فِي الكِبَرِ - كَمَا بَيَّنَهُ المَاوَرْدِيُّ فِي «أَدَبِ الدُّنْيَا وَالدِّينَ» - لِكَثْرَةِ الشَّوَاغِلِ، وَغَلَبَةِ القَوَاطِعِ، وَتَكَاثُرِ العَلَائِقِ)؛ **فعِلل ٱمتناع العلم على الكبير ثلاثٌ**:

أولها: كثرة الشَّواغل؛ وهي العوارض المُشغِلة من زوجٍ وولدٍ، وحاجةٍ من حوائج الدنيا أو غيرها.

وثانيتها: غلبة القواطع؛ أي كثرة الموانع الَّتي تقطعه عن ٱلتماس العلم.

وثالثتها: تكاثر العلائق؛ أي تتابع العلائق كثرةً، والمراد بالعلائق: الاتِّصالات النَّفسانية بينه وبين نفسِه، أو بينه وبين الخلْق.

فالواردات النَّفسية الَّتي ترِد على العبد في حال الكِبَر فتُشغِلُه بنفسه أو تُشغله نفسُه بغيره كثيرةٌ، وهذه العِلل لا تكون مقارنةً حال الصبا والشباب، فلمّا سلِم الشَّاب من هَٰذِهِ العِلل الثَّلاث صار أمكن في جمْع العلم، ولمَّا ٱختصَّ وفودها بالكبير عَسُر عليه العلم لا أنَّه يستعصي عليه فلا يُدركه، لَكِن متى أحسن المعاملةَ مع هَٰذِهِ العِلل حصَّل العلم، ولأجل هَٰذَا قال: (فَمَنْ قَدِرَ عَلَى دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَدْرَكَ العِلْمَ)؛ أي: مَنْ قدِر من الكبار على دَفْع هَٰذِهِ العِلل عن نفسه فإنَّه يُحصِّل العلم.

قال المصنف وفقه الله:

المَعْقِدُ الثَّامِنُ
لُزُومُ التَّأَنِّي فِي طَلَبِهِ، وَتَرْكُ العَجَلَةِ

إِنَّ تَحْصِيلَ العِلْمِ لَا يَكُونُ جُمْلَةً وَاحِدَةً؛ إِذِ القَلْبُ يَضْعُفُ عَنْ ذَٰلِكَ، وَإِنَّ لِلْعِلْمِ فِيهِ ثِقَلًا كَثِقَلِ الحَجَرِ فِي يَدِ حَامِلِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمّل] أَي القُرْآن، وَإِذَا كَانَ هٰذَا وَصْفُ القُرْآنِ المُيَسَّرِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر] -؛ فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ مِنَ العُلُومِ؟!

وَقَدْ وَقَعَ تَنْزِيلُ القُرْآنِ رِعَايَةً لِهٰذَا الأَمْرِ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا بِاعْتِبَارِ الحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفرقان].

وَهَذِهِ الآيَةُ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّأَنِّي فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَالتَّدَرُّجِ فِيهِ، وَتَرْكِ العَجَلَةِ؛ كَمَا ذَكَرَهُ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «الفَقِيهِ وَالمُتَفَقِّهِ»، وَالرَّاغِبُ الأَصْفَهَانِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «جَامِعِ التَّفْسِيرِ».

وَمَنْ شِعْرِ ٱبْنِ النَّحَّاسِ الحَلَبِيِّ قَوْلُهُ:

اليَوْمَ شَيْءٌ وَغَدًا مِثْلُهُ ... مِنْ نُخَبِ العِلْمِ الَّتِي تُلْتَقَطْ
يُحَصِّلُ المَرْءُ بِهَا حِكْمَةً ... وَإِنَّمَا السَّيْلُ ٱجْتِمَاعُ النُّقَطْ

وَمُقْتَضَى لُزُومِ التَّأَنِّي وَالتَّدَرُّجِ: البَدَاءَةُ بِالمُتُونِ القِصَارِ المُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ العِلْمِ حِفْظًا وَٱسْتِشْرَاحًا، وَالمَيْلُ عَنْ مُطَالَعَةِ المُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا.

وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّظَرِ فِي المُطَوَّلَاتِ فَقَدْ يَجْنِي عَلَى دِينِهِ، **وَتَجَاوُزُ الاعْتِدَالِ فِي العِلْمِ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى تَضْيِيعِهِ**، وَمِنْ بَدَائِعِ الحِكَمِ قَوْلُ عَبْدِ الكَرِيمِ الرِّفَاعِيِّ - أَحَدِ شُيُوخِ العِلْمِ بِدِمَشْقَ الشَّامِ فِي القَرْنِ المَاضِي -: «**طَعَامُ الكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ**».

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**لُـزُومُ التَّـأنِّي فِـي طَلَبِـهِ، وَتَـرْك العَجَلَـةِ**)؛ أي: لزوم الأناة - وهي السَّكينة - في طلبه وترْك العجلة، بأن يلتمس أخْذَه شيئًا فشيئًا.

وعلّله بقوله: (إِنَّ تَحْصِيلَ العِلْمِ لَا يَكُونُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) - أي: لا يكون دفعة واحدة -، (إِذِ القَلْبُ يَضْعُفُ عَنْ ذَٰلِكَ) - أي: يلحقه ضعفٌ عن بلوغ هَٰذَا، ولا يقوى عليه -، (وَإِنَّ لِلْعِلْمِ فِيهِ ثِقَلًا كَثِقَلِ الحَجَرِ فِي يَدِ حَامِلِهِ) أي: يجد القلب ثِقلًا للعلم إذا أُلقي عليه كما يجد حامل الحجر ثِقَل الحجر في يده، فإنَّ مَنْ رام رفْع حجرٍ ثقيلٍ آنس ثِقَله، فكذَٰلِكَ مَنْ أراد إلقاء العلم على قلبه دفعةً واحدةً فإنَّ قلبه يُؤنس ثِقَله، وكما أنَّ أحدنا إذا رفع حجرًا فثَقُلت يدُه عن حمْله ألقاه؛ فكذَٰلِكَ القلب إذا ثَقُل عن حمْل العلم ألقاه، وهَٰذَا من أسباب الانقطاع عن العلم؛ فإنَّ مُلتمسي العلم يهجمون على العلم فيرومون إدراكه في مُدَّةٍ يسيرةٍ، فيُحَمِّلون قلوبهم ما لا تحتمل من الحفظ والفهْم، فتلقى عناءً، فتلقي العلم عنها، فيرجع صاحبها عن الاستمرار في طلب العلم، وهو الَّذي جنى على نفسه، فعِوَض أن يبتدر نفسه بحفظ شيء يسير يُحمِّل قلبَه شيئًا كثيرًا، فإذا قيل له: ٱلزم حِفظ نصف وجه من القرآن؛ قال: أجدُ من نفسي قُدرةً على ما هو أعظم، فحمَّل قلبه حِفظ وجهين من القرآن، وٱستطاع ذَٰلِكَ، فما هو إلَّا أسبوع واحد حتَّى ينقطع عنه؛ لأنَّه حمَّل قلبه ما لا يحتمل من الثِّقَل.

وكما يُدَرَّج البدن في تقويتِه؛ فكذَٰلِكَ يُدَرَّج القلب في تقويتِه، فمَنْ رام أن يقوِّي بدنه، مارس رياضةً، ونظامًا غذائيًّا خاصًّا شيئًا فشيئًا حتَّى يقوى بدنه، وكذَٰلِكَ إذا أردتَّ أن تقوي قلبك في الحفظ ينبغي أن تأخذه شيئًا فشيئًا، فالمبتدئون حِفْظ نصفَ وجه من القرآن ربَّما ٱنتهوا إلى حِفْظ وجهين في تلك المدَّة نفسها، ولم ينقطعوا؛ لأنهم أخذوا نفوسهم شيئًا فشيئًا.

وكذَٰلِكَ في قوَّة القلب في الفهم، فهو لا يُحمِّل قلبه قدرًا كبيرًا من الفهم في يومه وليلته أو في أسبوعه؛ لئلَّا يضعُف قلبه عن الإدراك لما يُلقى من العلم فيثقل عليه ويمَلَّه، لكِنَّه يأخذه شيئًا فشيئًا حتَّى يتمكَّن منه.

وذكر ثِقَلَ العلم بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمِّل] أي القُرْآن).

(وَإِذَا كَانَ هٰذَا وَصْفُ القُرْآنِ المُيَسَّرِ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر] -؛ فمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ مِنَ العُلُومِ؟!)؛ أي: إذا كان الثِّقَل وصفا للقرآن في إلقائه على القلب فغيرُه من العلوم أَوْلى؛ لأن القرآن وُصِف باليسر وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسَّره على الخلق.

ثمَّ قال: (وَقَدْ وَقَعَ تَنْزِيلُ القُرْآنِ رِعَايَةً لِهٰذَا الأَمْرِ) - أي: مراعاةً له - (مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا بِاعْتِبَارِ الحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ)، فلم يُنزَل القرآن على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دفعةً واحدة؛ لأن القرآن محله من الإدراك عند النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو القلب؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشُّعراء].

فنزول القرآن محلُّه القلب، فلمَّا كان محله القلبُ والقرآن ثقيلٌ؛ وقع إنزال القرآن مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا؛ قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفرقان])؛ أي: ليكون ثابتا في فؤادِك، وفؤادُك ثابتًا به، فيكون محفوظا مَوْعِيًّا مُدرَكًا عند النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيثبت في قلب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويثبت به قلبُ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقوله: (مُنَجَّمًا)؛ أي: في أوقات معينة، فأصل النَّجم: الوقت المضروب المعين.

ثم ذكر أنَّ (هَذِهِ الآيَةَ حُجَّةٌ فِي لُزُومِ التَّأَنِّي فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَالتَّدَرُّجِ فِيهِ، وَتَرْكِ العَجَلَةِ؛ كَمَا ذَكَرَهُ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «الفَقِيه وَالمُتَفَقِّه»، وَالرَّاغِبُ الأَصْفَهَانِيُّ فِي مُقَدِّمَةِ «جَامِع التَّفْسِير»)؛ فهٰذان العالمان جعلا هٰذِهِ الآية دليلًا على أنَّ العلم ينبغي أن يُتأنَّى في أخذِه، وأن يُتَدَرَّج فيه شيئًا فشيئًا.

ثمَّ ذكر بيتين شهيرين لـ(ٱبْنِ النَّحَّاسِ الحَلَبِيِّ) - أحد علماء العربية -:

اليَـــوْمَ شَـيْءٌ وَغَـــدًا مِثْلُـــهُ ... مِــنْ نُـخَبِ العِلْـمِ الَّتِي تُلْتَقَـطْ

يُحَصِّـــلُ الــمَرْءُ بِـهَا حِكْمَـةً ... وَإِنَّمَا السَّيْـــلُ ٱجْتِمَـاعُ النُّقَـطْ

أي إنَّما يكون السَّيْلُ - وهو الماء الكثير الهادر - من ٱجتماع نقط الغيث النَّازل من السماء، فإنَّ نقطَ الغيثِ تجتمع شيئًا فشيئًا حتَّى يكثُر هَٰذَا الماء فيسيل سيلًا هادرًا.

ثم قال: (وَمُقْتَضَى لُزُومُ التَّأَنِّي وَالتَّدَرُّجِ: البَدَاءَةُ بِالـمُتُون القِصَارِ المُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ العِلْمِ حِفْظًا وَٱسْتِشْرَاحًا، وَالمَيْلُ عَنْ مُطَالَعَةِ المُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا)؛ **فلا يكون آخِذ العلم متأنِّيا مُتدرجًا حتَّى يستمسك بأصلين عظيمين:**

أحدهما: أن يبدأ (بِالـمُتُون القِصَارِ المُصَنَّفَةِ فِي فُنُونِ العِلْمِ)، وتكون بداءته بها بالحفظ والفهم؛ كما قال: (حِفْظًا وَٱسْتِشْرَاحًا)، فتقصِد إلى تلك المتون الموجزة المرتَّبة في أنواع العلوم، فتبدأ بها قبل غيرها.

فمثلًا: مَنْ رام أن يدرس علم الحديث فإنه يعمد إلى «الأربعين النووية» فيأخذها حِفظًا وفهمًا، فإذا عدَل عنها إلى ما فوقها فترك «الأربعين النووية»، ولم يحفل بـ«عمدة الأحكام»، ولا رضي بـ«بلوغ المرام»، ولا يرى «رياض الصالحين» شيئًا، وقال: أنا لـ«لبخاري» و«البخاري» لي؛ فهٰذا لا يُفلِح أبدًا؛ لأنَّ مَنْ دخل في شيء مقلوبًا خرج منه مقلوبًا، لَٰكِن مَنْ دخله على الوجه المرضي حاز منه بُغيتَه، فإذا ٱلتمس علم الحديث بأخذ «الأربعين النووية»

حفظًا وفهمًا، ثم أتبعها بـ«عمدة الأحكام»، ثم ثلَّث بـ«عمدة الأحكام»، ثم ربّع بـ«رياض الصالحين»، ثم تطلع إلى «البخاري»؛ ٱنتفع من أخْذِه «البخاري»، وكان أخْذُه له صحيحًا.

والأصل الآخر: (المَيْلُ عَنْ مُطَالَعَةِ المُطَوَّلَاتِ الَّتِي لَمْ يَرْتَفِعِ الطَّالِبُ بَعْدُ إِلَيْهَا)؛ فلا يشتغل المتعلِّم في حال ٱبتداء ٱلتماس العلم بالكتب المطوَّلة الَّتي لم يرتفع إليها في رتبته العلميَّة، وإن زعم أنَّه يصل إليها في رتبته الذِّهنية، فإن كثيرًا من المتعلِّمين يخدع نفسه بقوله: (إنَّ لي عقلًا وأنا أفهم)!، وليس هَذَا هو المراد في العلم، لَكِن المراد: هو بلوغك رتبة ذَٰلِكَ الكتاب في أخْذِك العلم.

فإنَّه لو قُدِّر أن أحدًا يعرف القراءة ويُدرِك عَمَد إلى «مجموع فتاوى ٱبن تيمية»، فقرأ كلاماً؛ فإنه غالبًا يفهم أكثره إن لم يفهمه جميعه، وليس هَٰذَا هو المراد، لَكِن المراد: أن تكون آلتك العلميَّة كاملةً لقراءة هَٰذَا الكتاب، فإنَّ مَنْ يقرأ هَٰذِهِ المطوَّلات بعد ٱكتمال آلته العلمية يعظُم ٱنتفاعه بها، ويعرف مواقع العلم والقول فيها، فيردُّها إلى الأصول التي تأكدت في قلبه بالحفظ والفهم.

فممَّا يلحق به الخيبة والخُسران طالبَ العلم: أن يعمد إلى هَٰذِهِ المطوَّلات قبل بلوغه إيَّاها في الرتبة العلمية، فيُقبِل عليها بالمطالعة؛ فإن ذَٰلِكَ يعود عليه بالعجز والثِّقَل والانقطاع عن العلم، أو يُولِّدُ فيه أقوالًا فاسدةً لضعف آلة الفهم عنده.

ولا نقصد بـ(آلة الفهم) مجرَّد الإدراك؛ لَكِن نقصد بذَٰلِكَ: بلوغ عقله الرتبة الذهنية للعلوم بفهْم مواقع القول في العلم، وإلا فالناس- كما سلف- يفهمون عادةً ما يُسمَع أو يُلقَى إليهم من الكلام، لَكِن مآل ذَٰلِكَ من مدارك الفهْم في الأحكام لا يصل إليها إلَّا مَنْ بلغ تلك الرتبة فيه.

ثم قال: (وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلنَّظَرِ فِي المُطَوَّلَاتِ فَقَدْ يَجْنِي عَلَى دِينِهِ، **وَتَجَاوُزُ الاعْتِدَالِ فِي العِلْمِ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى تَضْيِيعِهِ**) - أي: تجاوُز حدِّ الاعتدال في أخْذ العلم ربما يؤدي إلى تضييعه -،

(وَمِنْ بَدَائِعِ الحِكَمِ قَوْلُ عَبْدِ الكَرِيمِ الرِّفَاعِيِّ - أَحَدِ شُيُوخِ العِلْمِ بِدَمَشْقَ الشَّامِ فِي القَرْنِ المَاضِي -: «**طَعَامُ الكِبَارِ سُمُّ الصِّغَارِ**»)؛ أي: ما يتناولُه الكبار فينتفعون به من طعامٍ هو للصِّغار سمٌّ يموتون به؛ فإنَّك لو أتيت إلى صغير بطعام يُجعَل للكبار عادةً - من أرز، ولحم، وشحم - فجعلت تدفعه في فيِّ هَذَا الرضيع الَّذي ليس له إلَّا يوم أو يومين، أو شهر أو شهرين، فإنَّه يموت؛ لعجز معدته عن قبول هَذَا الطَّعام، وإن لم يمت مرض مرضًا شديدًا.

ولذَٰلِكَ جرت عادة الناس في ترقية الصغار في الطعام أن يدفعوا إليه أوَّلا الحليب مدةً، ثم ينقلوه بعد مدة إلى أنواع من الغذاء مرتبة، حتى يبلغ بعد سنين طويلة القدرة على أن يأكل الشحم واللحم.

فكذَٰلِكَ مَنْ يلتمس العلم إذا أشغل نفسه بطعام الكبار فيُدعَى إلى درس في «ثلاثة الأصول» فيقول: لا. أنا أحضر درسًا في «الروض المُرْبِع»، أو يُدعَى إلى درس في «الأربعين النووية» فيقول: لا. أنا أحضر درسًا في «صحيح البخاري»، وهو بعدُ لم يأخذ من الفقه ولا من الحديث بنصيبٍ، ولا قرأ مختصرات هَٰذِهِ الفنون، فمثل هَٰذا يُعرِّض نفسه بتناوله طعام الكبار لما يُفسِد قلبه ويمنعه العلم.

هَٰذا معنى هَٰذِهِ الجملة، وهو أنَّ تعرُّض المتعلِّم لما لا يصلح له من الكتب المُطوَّلَة يُفسِد علمه، وليس المرادُ - كما يفهمها بعضهم -: أنَّ المقصود منها هي: حمْل النَّاس على عدم التلقِّي على العلماء الكبار، وأن في هَٰذِهِ الكلمة تزهيدًا فيهم، فإن هَٰذا لم يقله أحد؛ إلا مَنْ وقع في فهمه هَٰذا الفهْم فرآه معنًى لهَٰذه الجملة.

فالمتكلمون بهَٰذه الجملة يريدون هَٰذا المعنى: وهو أنَّ المبتدئ في العلم ينبغي له أن يبتدأ بصغار العلم قبل كباره، وإذا تعرَّض للكبار أفسدته، سواءً أخذَه عن أكبر العلماء أو أصغر المُعلِّمين، فلو قُدِّر أن أحدًا ٱبتدأَ في العلم عند أعلم أهل الأرض بـ «فتح الباري» و«مجموع

ٱبن تيمية»، و«تفسير ٱبن كثير»؛ فإنَّه يموت في العلم ولا يستفيد، ولو ٱبتدأ عنده بـ«ثلاثة الأصول»، و«الأربعين النووية» وأشباهها من المختصرات فإنَّه ينتفع ٱنتفاعًا كثيرًا.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ التَّاسِعُ
الصَّبْرُ فِي العِلْمِ تَحَمُّلًا وَأَدَاءً

إِذْ كُلُّ جَلِيلٍ مِنَ الأُمُورِ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ تَتَحَمَّلُ بِهِ النَّفْسُ طَلَبُ المَعَالِي: تَصْبِيرُهَا عَلَيْهِ، وَلِهٰذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالمَصَابَرَةُ مَأْمُورًا بِهِمَا لِتَحْصِيلِ أَصْلِ الإِيمَانِ تَارَةً، وَلِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هٰذِهِ الآيَةِ: «هِيَ مَجَالِسُ الفِقْهِ».

وَلَنْ يُحَصِّلَ أَحَدٌ العِلْمَ إِلَّا بِالصَّبْرِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ أَيْضًا: «لَا يُسْتَطَاعُ العِلْمُ بِرَاحَةِ الجِسْمِ».

فَبِالصَّبْرِ يُخْرَجُ مِنْ مَعَرَّةِ الجَهْلِ، وَبِهِ تُدْرَكُ لَذَّةُ العِلْمِ.

وَصَبْرُ العِلْمِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحَمُّلِهِ وَأَخْذِهِ؛ فَالحِفْظُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَالفَهْمُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَحُضُورُ مَجَالِسِ العِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَرِعَايَةُ حَقِّ الشَّيْخِ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ فِي أَدَائِهِ وَبَثِّهِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى أَهْلِهِ؛ فَالجُلُوسُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَإِفْهَامُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَٱحْتِمَالُ زَلَّاتِهِمْ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ.

وَفَوْقَ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ العِلْمِ الصَّبْرُ عَلَى الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا.

لِكُلِّ إِلَى شَأْوِ العُلَا وَثَبَاتُ ... وَلٰكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**الصَّبْرُ فِي العِلْمِ تَحَمُّلًا وَأَدَاءً**).

والمراد بـ(تَحَمُّل العلم): جمْعُه وطلبه.

والمراد بـ(أداء العلم): تبليغه وبثُّه.

فصاحب العلم مفتقِرٌ إلى الصبر فيه ٱبتداءً وٱنتهاءً، فإن التحمُّل حال ٱبتداء، والأداء حال ٱنتهاء.

قال: (إِذْ كُلُّ جَلِيلٍ مِنَ الأُمُورِ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالصَّبْرِ، وَأَعْظَمُ شَيْءٍ تَتَحَمَّلُ بِهِ النَّفْسُ طَلَبُ المَعَالِي: تَصْبِيرُهَا عَلَيْهِ)؛ أي: لا يمكن للعبد أن ينال أمرا من الأمور العظيمة إلَّا بأن يحبس نفسه عليه حتَّى يُدركه، قال: (وَلِهٰذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالمُصَابَرَةُ مَأْمُورًا بِهِمَا لِتَحْصِيلِ أَصْلِ الإِيمَانِ تَارَةً، وَلِتَحْصِيلِ كَمَالِهِ تَارَةً أُخْرَى؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٠٠])، **ففي الآية الأمر بالصبر من جهتين:**

إحداهما: الصَّبر في النَّفس بلا مُدافعةٍ، في قوله: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾.

والآخر: الصَّبر في النَّفس مع المدافعة، في قوله: ﴿وَصَابِرُواْ﴾.

فإنَّ (المفاعلة) تكون مع آخر سواه، فالمصابرة، والمقاتلة، والمراغمة تكون مع طرف آخرٍ، فالعبد مأمور بالصَّبر في نفسه إن تجرَّدت عن مُدَافِع يُنازعها، ومأمور بالصبر مع وجود المُنازع المدافع.

ثم ذكر قوله تعالى: (﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هٰذِهِ الآيَةِ: «هِيَ مَجَالِسُ الفِقْهِ»)، فأُمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بأن يصبر في العلم أداءً، وأولئك مأمورون بالصبر في العلم تحمُّلًا.

قال: (وَلَنْ يُحَصِّلَ أَحَدٌ العِلْمَ إِلَّا بالصَّبْرِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ أَيْضًا: «لَا يُسْتَطَاعُ العِلْمُ بِرَاحَةِ الجِسْمِ»)؛ فلا بد من بذْلٍ يتَعنَّى به البدنُ.

قال: (فبِالصَّبْرِ يُخْرَجُ مِنْ مَعَرَّةِ الجَهْلِ)؛ فإذا صبر ملتمس العلم خرج من عيب الجهل، فإنَّه لا يخرج من معرة الجهل ونقصِه بمجرَّد أن يشتهي العلم فينالَه، لكِنَّه يحتاج إلى صبر في العلم، فهو يصبر على الحفظ، ويصبر على الفهم، ويصبر على الجلوس في الدرس، ويصبر على الذهاب إلى الدرس، ويصبر على ٱستذكار هَذَا الدرس.

قال: (وَبِهِ تُدْرَكُ لَذَّةُ العِلْمِ)؛ أي: لا يبلغُ العبدُ لذَّةَ العلم حتَّى يكون له صبرٌ، فإنَّ المطالب العالية من اللَّذات السَّامية يكون أول مبدئها الصبر، ومن هنا قال بعض فلاسفة اليونان: «الفضائل مرَّة الأوائل، حُلوة الأواخر»؛ أي: يجد صاحبها مرارةً في ٱبتداء ٱبتغائها، ثم تنقلب هَٰذِهِ المرارةُ بعدُ إلى حلاوة بما ينال من عاقبة حميدة للفضيلة التي ٱشتغل بها، ومن جملة تلك الفضائل: العلم؛ فالمرء في ٱبتداء أَخْذِه العلم يجد مرارةً، فأنت الآن ربما تجد مرارةً في أنك تجلس هَٰذِهِ المدة في الدرس ويجلس غيرك في اللهو، أو في دعوات الخلق في مناسباتهم، أو غير ذَٰلِكَ من الأمور التي تنْزَعُك وتريد إخراجك من هَٰذِهِ الحلقة إلى غيرها من مطالب النفس ورغباتها، ومراغمتك هَٰذِهِ الآفة التي ترد على نفسك تجد بها مرارةً، فإذا ٱستويت على مطلوبك وأمعنت فيه حمِدتَ عاقبتك، ووجدتَ من اللذة العاجلة والآجلة في العلم ما لا يجده أولئك الَّذين يُضيِّعون أعمارهم وَقُدَرَهُم فيما لا ينفعهم، أو فيما ينفعهم لَٰكِن غيره أنفع لهم منه.

ثمَّ ذكر صبرَ العلم فقال: (وَصَبْرُ العِلْمِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: صَبْرٌ فِي تَحَمُّلِهِ وَأَخْذِهِ).

(والنَّوْعُ الثَّانِي: صَبْرٌ فِي أَدَائِهِ وَبَثِّهِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى أَهْلِهِ).

فالعلم يحتاج إلى صبر في المبتدإِ تحمُّلًا وأخْذًا، ويحتاج صبرا في المنتهى تعليمًا وبثًّا.

ثم ذكر حال الأوَّل فقال: (فَالحِفْظُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ)؛ فأنت تحتاج إلى مدةٍ تجعلها للتحفُّظِ.

قال: (وَالفَهْمُ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ)؛ فأنت تعيد النظر وتجيل الفكر في ما تروم فهْمه، وهَٰذَا يحتاج إلى صبر.

قال: (وَحُضُورُ مَجَالِسِ العِلْمِ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ، وَرِعَايَةُ حَقِّ الشَّيْخِ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ)؛ فالشَّيخ له حقٌّ، وحتى ترعاه وتقوم به تحتاج إلى صبر عليه، فإن النفس قد تنزعك إلى خلاف ذَٰلِكَ.

ثمَّ قال في صبر الأداء والبثِّ: (فَالجُلُوسُ لِلْمُتَعَلِّمِينَ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ)؛ فإن الجلوس للمتعلمين لا يحصل للعبد مجردًا بلذة ينالها؛ لأن هَٰذِهِ اللذة تكون في مبتدإِ جلوسه، شهرا وشهرين، وسنةً وسنتين، فما هي إلَّا مدة ثم ينقطع ويترك التعليم؛ لأنَّ الجلوس للمتعلمين يصاحبه انقطاع المرء عن مطالب أخرى لنفسه، فيحتاج إلى أن ينزع نفسه من تلك المطالب وأن يجلسها في نفْع المتعلِّمين.

قال: (وَإِفْهَامُهُمْ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ)؛ فإنَّ مدارك الناس تختلف، وقد تُلقي مسألة فيفهمها هَٰذَا ولا يفهمها آخر، فإذا رغِب منك أن تعيد تلك المسألة ليفهمها كان هَٰذَا من حقِّه عليك، فينبغي أن تصبر في إفهامه هَٰذه المسألة.

قال: (وَاحْتِمَالُ زَلَّاتِهِمْ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ)؛ فإنَّ الزَّلَّة تقارن الآدميَّة، وممَّا يقع من الزَّلَّات: زلَّات المتعلِّمين مع المعلِّمين، ولا يُستغرَب صدور هَٰذَا؛ لأن هَٰذَا مقارِن للآدمية، ومَنْ تصدَّى لنفْع الناس في التعليم؛ فينبغي أن يعوِّد نفسه الصبر على زلات المتعلمين.

فإن من المعلمين مَنْ ينقطع تحت دعوى أن عامَّة ملتمسي العلم اليوم صاروا يُخِلُّون بأدبه، وهَٰذَا ليس عُذرًا له؛ بل الواجب عليه أن يُقوِّمهم بالآداب الحسنة، وأن يصبر على ما يقع منهم من الزَّلَّات.

ثم قال: (وَفَوْقَ هٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنْ صَبْرِ العِلْمِ الصَّبْرُ عَلَى الصَّبْرِ فِيهِمَا وَالثَّبَاتُ عَلَيْهِمَا)؛ فإذا صبرت في التَّحمل فتحتاج إلى مزيد من الصبر عليه، وإذا صبرتَ في الأداء فتحتاج إلى مزيد من الصبر عليه، فلا يزال الصبر معك حتى تلقى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنَّ الصبر أعظم الآلة التي تُحَصَّل بها المراتب العالية، ولا ينال العبد مرتبة عاليةً في الدنيا والآخرة حتى يكون صبورًا، ومَنْ لا يكون صبورًا فإنه لا يُحرز تلك المطالب العالية.

ولذَٰلِكَ أُمِر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ غير مرة بالصبر في خاصة نفسه، فقيل له: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧]، وقيل: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥]، كما أنه شَمله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فأُمر بالصبر وأعيد عليه؛ لأنَّ مرتبة النبوة العالية في الدُّنيا، وما يكون له صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من المقامات العالية في الآخرة = لن يناله إلا بالصبر.

ثمَّ أنشد قول الشاعر:

لِكُلٍّ إِلَى شَأْوِ العُلَا وَثَبَاتُ ....

أي: لكلٍّ إلى غايةِ العلا وثبات - أي: قفزات.

.... وَلَكِنْ عَزِيزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ

أي: يعز في الرجالِ الثَّبات.

وذِكْرُ الرِّجال خرج مخرج الغالب، وإلَّا فإنه في الخلق كافة، فَيَعِزُّ في الرجال والنِّساء أن يثبتوا على مطلوباتهم.

وقلتُ في آخر «منظومة الهداية»:

إِنَّ الثَّبَاتَ فِي الرِّجَالِ عَزَّا وَيَغْنَمُ الرِّجَالُ مِنْهُ العِزَّا

(عَزَّا)؛ يعني: قلَّ.

(وَيَغْنَـمُ الرِّجَـــالُ مِنْهُ العِـــزَّا)؛ أي: إذا صبروا فإنهم يغنمون عِزَّ الدنيا والآخرة.

قال المصنف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ العَاشِرُ
مُـلَازَمَـةُ آدَابِ العِـلْـمِ

قَالَ ٱبْنُ القَيِّمِ فِي كِتَابِهِ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»: «أَدَبُ الـمَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقِلَّةُ أَدَبِهِ عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ، فَمَا ٱسْتُجْلِبَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِمِثْلِ الأَدَبِ، وَلَا ٱسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الأَدَبِ».

وَالمَـرْءُ لَا يَسْمُـو بِغَيْـرِ الأَدَبِ وَإِنْ يَكُـنْ ذَا حَسَـبٍ ونَسَـبِ

وإِنَّمَا يَصْلُحُ لِلْعِلْمِ مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ فِي نَفْسِهِ وَدَرْسِهِ، وَمَعَ شَيْخِهِ وَقَرِينِهِ.

قَالَ يُوسُفُ بْن الحُسَيْن: «بِالأَدَب تَفْهَمُ العِلْمَ».

لأَنَّ المُتَأَدِّبَ يُرَى أَهْلًا لِلْعِلْمِ فَيُبْذَلُ لَهُ، وَقَلِيلُ الأَدَبِ يُعَزُّ العِلْمُ أَنْ يُضَيَّعَ عِنْدَهُ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ الأَدَبِ كَمَا يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ.

قَالَ ٱبْنُ سِيرِينَ: «كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الهَدْيَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ العِلْمَ».

بَلْ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُقَدِّمُونَ تَعَلُّمَهُ عَلَى تَعَلُّمِ العِلْمِ.

قَال مَالِكُ بْن أَنَسٍ لِفَتًى مِن قُرَيْشٍ: «يَا ٱبْنَ أَخِي؛ تَعَلَّمِ الأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ العِلْمَ».

وَكَانُوا يُظْهِرُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ.

قَالَ مَخْلَدُ بْن الحُسَيْنِ لِابْنِ المُبَارَكِ يَوْمًا : «نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِن العِلْمِ».

وَكَانُوا يُوصُونَ بِه، وَيُرْشِدُونَ إِلَيْهِ.

قَال مَالِكٌ: كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي وَتَقُولُ لِي: «ٱذْهَبْ إِلَى رَبِيعَةَ - تَعْنِي ٱبْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقِيهَ أَهْلِ المَدِينَةِ فِي زَمَنِهِ - فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ».

وَإِنَّمَا حُرِمَ كَثِيرٌ مِنْ طَلَبَةِ العَصْرِ العِلْمَ بِتَضْيِيعِ الأَدَبِ.

أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى أَصْحَابِ الحَدِيثِ، فَرَأَى مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَالَ: «مَا هٰذَا؟، أَنْتُمْ إِلَى يَسِيرٍ مِنَ الأَدَبِ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ العِلْمِ».

فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَى حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ فِي هٰذَا العَصْرِ؟!

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**مُلازَمَةُ آدَابِ العِلم**)؛ لأنَّ وفور الأدب – يعني: كثرتَه وتتابعه – من أسباب السعادة، وقلة الأدب من أسباب الشقاوة.

وذكر تصديق ذَٰلِكَ في قول ٱبن القيم: («أَدَبُ المَرْءِ عُنْوَانُ سَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ، وَقِلَّةُ أَدَبِهِ عُنْوَانُ شَقَاوَتِهِ وَبَوَارِهِ»)؛ والعنوان: ٱسمٌ لما يدلُّ على الشَّيء، فممَّا يدلُّ على سعادة العبد وفلاحِه: أدبُه، وممَّا يدلُّ على شقاوته وبواره – يعني: خسارته –: قلة أدبه.

ثم قال: («فَمَا ٱسْتُجْلِبَ») – أي: حُصِّل – («خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بِمِثْلِ الأَدَبِ، وَلَا ٱسْتُجْلِبَ حِرْمَانُهُمَا بِمِثْلِ قِلَّةِ الأَدَبِ»)؛ فيُحَصَّل خير الدنيا والآخرة بسلوك الأدب، ويُفقَد الخير ويحظى العبد بالحرمان إذا قلّ أدبه.

وَالمَرْءُ لَا يَسْمُو[1] بِغَيْرِ الأَدَبِ   وَإِنْ يَكُنْ ذَا حَسَبٍ ونَسَبِ

---

(١) أي: لا يعلو.

ثمَّ قال: (وإِنَّمَا يَصْلُحُ لِلْعِلْمِ مَنْ تَأَدَّبَ بِآدَابِهِ) - أي: بآداب العلم - (فِي نَفْسِهِ وَدَرْسِهِ، وَمَعَ شَيْخِهِ وَقَرِينِهِ)، **فميادين أدب العلم أربعة:**

أحدها: أدب النفس.

وثانيها: أدب الدرس.

وثالثها: الأدب مع الشيخ.

ورابعها: الأدب مع القرين؛ وهو: الزميل المشارِك.

ثمَّ ذكر قولَ: (يُوسُفَ بْنِ الحُسَيْنِ: «بِالأَدَبِ تَفْهَمُ العِلْمَ»)، ومن معاني هَٰذَا ما بيَّنه بقوله: (لأَنَّ المُتَأَدِّبَ يُرَى أَهْلًا لِلْعِلْمِ فَيُبْذَلُ لَهُ، وَقَلِيلُ الأَدَبِ يُعَزُّ العِلْمُ أَنْ يُضَيَّعَ عِنْدَهُ)، فإنَّ الشيوخ المعلمين إذا رأوا المتعلِّم متأدِّبًا بذلوا له العلم؛ لأنَّهم يرونه أهلًا له، وإذا رأوه قليل الأدب أكرموا العلم أن يضيِّعوه فحبسوه عنه؛ فالمتأدِّب يفهم العلم بأن يُلقَى إليه على وجهٍ يُدركه، وقليل الأدب يمنعه المعلِّمُ حظَّه من العلم بسبب سوء أدبه.

فتجد المسألة الواحدة يَسأَلُ عنها رجلان، فيسأل أحدهما شيخه بأدبٍ فيجيبه عنه، ويسأل الآخر شيخه بغير أدبٍ فيمنعه منها، فإنَّه ليس من إكرام العلم وإعظامه أن يجيبهما مع افتراق حالهما؛ فإذا جاء الأوَّل فقال: أحسن الله إليكم، ذكرتم كذا وكذا، وأشكل عليّ قوله تعالى كذا وكذا، فيجيبه الشيخ ويدلُّه على ما يرتفع به الإشكال، فإذا تبعه آخر فقال مُعنِّفًا للشيخ: إنَّكم تقولون قولًا يخالف قول الله، ونحن نتبع قول الله ولا نتبع قولك، قال: الله يوفقك، فهَٰذَا هو المعلِّم العاقل، يُعرِض عنه حتَّى يتأدّب، فإذا تأدّب دلَّه على العلم، ولا يُقبِل عليه فيقول: لا. هَٰذِهِ الآية معناها كذا وكذا، والكلام الَّذي ذكرناه وجهه كذا وكذا؛ لأنَّه لا يراه أهلًا لحمْل العلم، وأمَّا الأول فإنه يُرَى أهلًا لحمل العلم فيُدَلُّ على ما ينفعه من العلم.

ثم قال: (وَمِنْ هُنَا كَانَ السَّلَفُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ الأَدَبِ كَمَا يَهْتَمُّونَ بِتَعَلُّمِ العِلْمِ)؛ أي: بلغتِ العناية بالأدب عندهم الإقبالُ عليه كالحال التي يُقبَل بها على العلم، وٱعتبِر البونَ الواسع والفرق الشَّاسع بين حالنا وحالهم؛ فإنَّ كثيرا من المتعلِّمين يُقبلون وِحدانًا وزُرافاتٍ على دروسٍ في العلم، فإذا ذُكرت لهم دروس الآداب رأوا أنَّها ممَّا لا يُضَيَّع الوقت فيه، وهم الضائعون بإهمالهم تلك الآداب سواءً ممَّا يتعلق بآداب العلم أو ما يتعلق بغير ذَٰلِكَ من الآداب في الإسلام كافة.

ولذَٰلِكَ تجد كثيرًا من المتعلمين إذا ذُكِر له درس في آداب السلام أو آداب الطعام لم يحفل به؛ ظنًّا منه أنه قد ٱرتفع عن هَٰذِهِ الرتبة، فإذا جئته فسألته مسألة واحدة من مسائل أدب الطعام: هل الأدب المذكور في ٱلتقاط اللقمة إذا وقعت يتعلَّق بلقمةٍ تامَّةٍ، أو بأفراد من الطعام؟.. سكت، وٱنقطع عن العلم بها، وهَٰذَا دليل جهله؛ لأنه لو كان يعرف للأدب رتبته لحرص على تعلُّم آداب الطعام.

فينبغي أن يعتني طالب العلم بالأدب ممَّا يتعلق بالعلم خاصةً، أو ما يتعلق بالدين كافة، فإنك إذا ضيَّعتَ الآداب ضيَّعتَ الدين، فإنَّ الآداب من جملة الدِّين، وإذا قويتِ الآداب في النفس قويت النَّفس على طلب الدين، وإذا ضعُفت الآداب في النَّفس ضعُفت النفس عن طلب الدين والعمل به.

ثمَّ ذكر من آثارهم في الاعتناء بتَعَلُّم العلم قول (ٱبْنِ سِيرِينَ) - وهو أحد التابعين-: («كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الهَدْيَ») - أي: الأدب - («كَمَا يَتَعَلَّمُونَ العِلْمَ»)؛ أي: يجعلونه بهَٰذه المنزلة.

قال: (بَلْ إِنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُقَدِّمُونَ تَعَلُّمَهُ عَلَى تَعَلُّمِ العِلْمِ.

قَالَ مَالِكُ بْن أَنَسٍ لِفَتًى مِن قُرَيْشٍ: «يَا ٱبْنَ أَخِي؛ تَعَلَّمِ الأَدَبَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ العِلْمَ»)؛ لأنَّ الأدب وسيلة العلم.

وكان من الجاري في حِلَق أهل العلم أن يُقَدِّموا تعليم الأدب على تعليم العلم، فإذا ورد عليهم متعلِّمٌ لقَّنوه آداب العلم إمَّا إلقاءً وإمَّا بإقراء كتاب مختصرٍ في أدب العلم، كتعليم المتعلم» للزَّرنوجي، أو «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جَماعة، ثم نقلوه بعد ذَٰلِكَ إلى العلم.

قال: (وَكَانُوا يُظْهِرُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَيْهِ.

قَالَ مَخْلَدُ بْن الحُسَيْنِ لِابْنِ المُبَارَكِ يَوْمًا : «نَحْنُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى كَثِيرٍ مِن العِلْمِ».

وَكَانُوا يُوصُونَ بِهِ، وَيُرْشِدُونَ إِلَيْهِ.

قَال مَالِكٌ: كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي [1] وَتَقُولُ لِي: «ٱذْهَبْ إِلَى رَبِيعَةَ - تَعْنِي ٱبْنَ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ فَقِيهَ أَهْلِ المَدِينَةِ فِي زَمَنِهِ - فَتَعَلَّمْ مِنْ أَدَبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ»)، فوجَّهت أمُّه عنايته إلى الأمر الأعظم، وهو أن يتعلم الأدب قبل أن يتعلم العلم.

قال: (وَإِنَّمَا حُرِمَ كَثِيرٌ مِنْ طَلَبَةِ العَصْرِ العِلْمَ بتَضْيِيعِ الأَدَبِ)؛ أي: من أكبر العِلل التي أوهنت طلاب العلم فحُرموا العلم في عصرنا هَٰذَا: تضييع الأدب، فهم لا يَعنون به تعلُّمًا، ولا يعنون به إقامةً وتطبيقًا.

قال: (أَشْرَفَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى أَصْحَابِ الحَدِيثِ، فَرَأَى مِنْهُمْ شَيْئًا كَأَنَّهُ كَرِهَهُ فَقَالَ: «مَا هٰذَا؟، أَنْتُمْ إِلَى يَسِيرٍ مِنَ الأَدَبِ ») - أي: قليل من الأدب - («أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ العِلْمِ»)؛ لأنَّ قليلَ العلم مع كثير الأدب ينفع ويرفع، وكثيرَ العلم مع قليل الأدب لا ينفع ولا يرفع.

---

(١) أي: تُلبسني العمامة؛ حتَّى يحاذي في صورتِه الكبارَ مع صِغَر سِنِّه؛ فإن العمامة شعارٌ لِمَنْ تقدَّمت به السِّن وٱرتفع عن سِن الصِّغَار.

قال: (فَمَاذَا يَقُولُ اللَّيْثُ لَوْ رَأَى حَالَ كَثِيرٍ مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ فِي هٰذَا العَصْرِ؟!)؛ أي: أيُّ شيء يقوله الليث عِوَض ما ذكره لو رأى الحال التي عليها الناس اليوم في أدب العلم؟، لقال ما هو أعظم من هَٰذِهِ المقالة.

وإذا نُصِح العبد بما يدلُّه ويرشده على الأدب فإنَّه ينبغي أن يحمل نفسه عليه، وأن يأخذ به أخذًا حسنًا؛ لأنَّ حُسن حالك في الدنيا والآخرة في العلم عاجلًا وفي المآل آخرًا يكون على قدر أدبك.

وٱحرص على تتبع أبواب الأدب في أدب الكلام، وأدب السلام، وأدب الطعام، فلتكن من العلم الَّذي يعنيك.

وممَّا يُضرَب به المثل على ما تقدَّم من تقديم غير المهم على الأهم: أن تجد طالب علمٍ يقرأُ «الورقات» و«الآجرامية» وهو لم يقرأ قطُّ متنًا في الأدب!!، فهو لا يعرف ما يجب عليه من حق السلام والاستئذان...، فتجد فيه ما هو خلاف الأدب، فأنت ترى من المتعلمين مَنْ يأتِ مباشرةً ويفتح الباب دون ٱستئذان ووقوف عند الباب، وأن يطرق ثلاثًا!، فأيُّ علمٍ ناله ولو كان قرأ «الورقات» و«الآجرامية»؟! إذا كان شيء من الآداب الشَّرعية المتعارَف عليها ممَّا يتكرر في اليوم والليلة لا يعرفه.

فينبغي أن يعرف طالب العلم ما ينبغي أن يعتني به في وظائف العبودية، ومن جملتها: الآداب، وأن يُنزلها منزلتها حتى يُحقق العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن جمْعَ العلم لا يُراد لذاته، وإنما يُراد لتكميل مقام العبودية عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإنما كان العلماء ورثة الأنبياء، وأعلى الناس بعد الأنبياء مقامًا؛ لكمال حالهم بالعلم في العبودية، فإنهم لما أخذوا العلم وجمعوه وٱستعملوه كمُلت حالهم في العبودية فرفعهم الله عَزَّوَجَلَّ عنده.

فطالب العلم إنما يلتمس من طلب العلم أن يُحقِّق العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، فهو يتعرف وظائف العبودية ويتلمسُّها، ثم يُعمِلها في نفسه.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المعْقِدُ الحَادِيَ عَشَرَ
صِيَانَةُ العلْم عمَّا يَشِينُ؛
ممَّا يُخالِفُ المُرُوءةَ وَيَخْرِمُهَا

مَنْ لَمْ يَصُنِ العِلْمَ لَمْ يَصُنْهُ العِلْمُ - كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ -، وَمَنْ أَخَلَّ بِالمُرُوءَةِ بِالوُقُوعِ فِيمَا يَشِينُ فَقَدْ ٱسْتَخَفَّ بِالعِلْمِ، فَلَمْ يُعَظِّمْهُ وَوَقَعَ فِي البَطَالَةِ، فَتُفْضِي بِهِ الحَالُ إِلَى زَوَالِ ٱسْمِ العِلْمِ عَنْهُ.

قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: «لَا يَكُونُ البَطَّالُ مِنَ الحُكَمَاءِ».

وَجِمَاعُ المُرُوءَةِ - كَمَا قَالَهُ ٱبْنُ تَيْمِيَّةَ الجَدُّ فِي «المُحَرَّرِ»، وَتَبِعَهُ حَفِيدُهُ فِي بَعْضِ فَتَاوِيهِ -: «ٱسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيَزِينُهُ، وَتَجَنُّبُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ».

قِيلَ لِأَبِي مُحَمَّدٍ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: قَدِ ٱسْتَنْبَطْتَ مِنَ القُرْآنِ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ الْمُرُوءَةَ فِيهِ؟ قَالَ: «فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ فَفِيهِ المُرُوءَةُ، وَحُسْنُ الأَدَبِ، وَمَكَارِمُ الأَخلَاقِ».

وَمِنْ أَلْزَمِ أَدَبِ النَّفْسِ لِلطَّالِبِ: تَحَلِّيهِ بِالمُرُوءَةِ، وَمَا يَحمِلُ عَلَيْهَا، وَتَنَكُّبُهُ خَوَارِمَهَا الَّتِي تُخِلُّ بِهَا؛ كَحَلْقِ لِحْيَتِهِ، أَو كَثْرَةِ الِالْتِفَاتِ فِي الطَّرِيقِ، أَوْ مَدِّ الرِّجْلَيْنِ فِي مَجْمَعِ النَّاسِ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ، أَوْ صُحْبَةِ الأَرَاذِلِ وَالفُسَّاقِ وَالمُجَّانِ وَالبَطَّالِينَ، أَوْ مُصَارَعَةِ الأَحْدَاثِ وَالصِّغَارِ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**صِيَانَةُ العِلْمِ عَمَّا يَشِينُ**) - أي: حِفْظ العلم عمَّا يقبُح -؛ (**مِمَّا يُخَالِفُ المُرُوءَةَ**) - أي: يباينها ويخالفها - (**وَيَخْرِمُهَا**) - أي: يَشُقُّها، فأصل الخرم: الشَّقُّ.

وعلَّله بقول الشافعي: (مَنْ لَمْ يَصُنِ العِلْمَ لَمْ يَصُنْهُ العِلْمُ)، فالدَّاعي إلى صيانتك العلم هو أن يكون العلم صائنًا لك - أي: حافظًا لك -، فإن لم تحفظ العلم وترعاه فإن العلم لا يحفظك.

قال: (وَمَنْ أَخَلَّ بِالمُرُوءَةِ بِالوُقُوعِ فِيمَا يَشِينُ فَقَدْ ٱسْتَخَفَّ بِالعِلْمِ) - أي: لم يبالِ به -، (فَلَمْ يُعَظِّمْهُ وَوَقَعَ فِي البَطَالَةِ) - أي: في حال الفساد والمَجانة -، (فَتُفْضِي بِهِ الحَالُ إِلَى زَوَالِ ٱسْمِ العِلْمِ عَنْهُ) - أي: بأن يُمحَى ٱسم العلم عنه.

(قَالَ وَهْبُ بْن مُنَبِّهٍ: «لَا يَكُونُ البَطَّالُ مِنَ الحُكَمَاءِ»)؛ أي: لا يكون الماجن الفاسد المتباعد عن أخلاق العلم من الحكماء - أي: من أهل الحكمة.

ثمَّ ذكر (جِمَاعَ المُرُوءَةِ) - أي: الأصلَ الجامع لها - وهو: («ٱسْتِعْمَالُ مَا يُجَمِّلُهُ وَيَزِينُهُ، وَتَجَنُّبُ مَا يُدَنِّسُهُ وَيَشِينُهُ»). ذكره ٱبْنُ تَيْمِيَّةُ الجَدُّ وحَفِيدُهُ أبو العباس أحمد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

فمدار المروءة على أمرين:

أحدهما: ٱستعمال العبد ما يُجَمِّله ويزينه - أي: ما يكون به جميلًا زيْنًا.

والآخر: تباعده عمّا يُدَنِّسه - أي: ما يُلَطِّخه بالقبائح - ويشينه.

فإذا عُنِي العبد بهَذَين الأمرين أصاب المروءة، وأصلها في القرآن هو قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ كما ذكر المصنف عن سفيان بن عيينة، وفيه قولُه بعد ذِكْر هَٰذِهِ الآية: (فَفِيهِ المُرُوءَةُ، وَحُسْنُ الأَدَبِ، وَمَكَارِمُ الأَخْلَاقِ).

ثم قال: (وَمِنْ أَلْزَمِ أَدَبِ النَّفْسِ لِلطَّالِبِ: تَحَلِّيهِ بِالمُرُوءَةِ) - أي: بأن يتخلَّق بها -، (وَمَا يَحمِلُ عَلَيْهَا) - أي: ما يبَلِّغه إياها -، (وَتَنَكُّبُهُ) - أي: إعراضُه وتباعدُه - (خَوَارِمَهَا)؛ أي: خوارم المروءة، وهي: الأمور التي تقدح في المروءة، وأصل (الخرم) - كما تقدم - من الشَّقِّ، فسُميت هَٰذِهِ الأمور (خوارمَ المروءة) لأنَّها تشقها وتمحو اسمها عن العبد.

قال: (الَّتِي تُخِلُّ بِهَا؛ كَحَلْقِ لِحْيَتِهِ، أَو كَثْرَةِ الِالْتِفَاتِ فِي الطَّرِيقِ)، فإنَّ المرء إذا سلك طريقًا مراده منه الوصول إلى شيء، فلا ينبغي له أن يشتغل بالالتفات أصلًا، وإنَّما يلتفت على قدر الحاجة، فإذا كثُر التفاته في الطريق فإنَّ هَٰذَا من خوارم المروءة.

ومن جملة ما يتصل بالالتفات في الطريق: الالتفات على السيارات الواقفة عند إشارة المرور، فإنَّ هَٰذَا مما يخالف المروءة، فليس من المروءة أن يُشرِف المرء بعينيه إلى تلك السيارة ثم ينقلب إلى تلك السيارة، بل ينبغي أن يحبس نظره على ما يحتاجه من الطريق والإشارة، وأمَّا التَّطُلُّع هاهنا وهاهنا فإنه من خوارم المروءة.

وكان ممَّا اعتاد الناس هنا الامتناع عنه، فلم يكن فيما مضى من خُلق الناس أن يتطلعوا إلى السيارات الواقفة عند الإشارة، حتَّى بُلي الناس بخَلل المروءة والدين معًا، فصار الناس لا يبالون بحفظ أبصارهم في إطلاقها إلى الواقفين عند الإشارات.

قال: (أَوْ مَدِّ الرِّجْلَيْنِ فِي مَجْمَعِ النَّاسِ مِنْ غَيرِ حَاجَةٍ وَلَا ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ)، فإنَّ الأصل فيمَنْ جلس مع النَّاس أن يلزم جِلسة الأدب، وليس من جِلسة الأدب في عُرف النَّاس أن يمد رجليه إلا أن يكون محتاجًا؛ لتعب، أو أن يكون مضطرًا؛ لمرض، فهٰذا جرت عادة الناس بالمسامحة فيه.

وإذا كان مُستقبحًا في مجامع الناس عادةً فإنه أَوْلى أن يكون مُستقبحًا في مجالس العلم والدين؛ لأنَّها أعلى مجالس الخلق، فليست مجالس الملوك هي أعلى مجالس الأعلى؛ بل أعلى

مجالس الخلق هي المجالس التي تخلِف مجالس النبوة، والتي خلفت مجالس النبوة هي: مجالس العلم؛ فمن الأدب فيها أن لا يمدَّ رجليه إلا أن يكون محتاجًا أو مريضًا.

قال: (أَوْ صُحْبَةِ الأَرَاذِلِ وَالفُسَّاقِ وَالمُجَّانِ وَالبَطَّالِينَ)، فإنَّ هَؤُلَاءِ لا يصلحون للصُّحبة، (أَوْ مُصَارَعَةِ الأَحْدَاثِ وَالصِّغَارِ)، فإنَّ المرء إنما يعامل في هَذِهِ الحال وما شابهها مَنْ كان في سِنِّه، وأمَّا مَنْ كان يقصر عنه بمدة - كحدثٍ صغير - فإنه لا يداخله في مثل هَذَا.

قال المصنِّف وفَّقه اللّٰه:

المَعْقِدُ الثَّانِي عَشَرَ
انْتِخَابُ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ لَهُ

ٱتِّخَاذُ الزَّمِيلِ ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ فِي نُفُوسِ الخَلْقِ، فَيَحْتَاجُ طَالِبُ العِلْمِ إِلَى مُعَاشَرَةِ غَيْرِهِ مِنَ الطُّلَّابِ؛ لِتُعِينَهُ هَذِهِ المُعَاشَرَةُ عَلَى تَحْصِيلِ العِلْمِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي طَلَبِهِ.

وَالزَّمَالَةُ فِي العِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الغَوَائِلِ نَافِعَةٌ فِي الوُصُولِ إِلَى المَقْصُودِ.

وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ العُلَا إِلَّا ٱنْتِخَابَ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ؛ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثَرًا.

رَوَى أَبُو دَاودَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**».

يَقُولُ الرَّاغِبُ الأَصْفَهَانِيُّ: «لَيْسَ إِعْدَاءُ الجَلِيسِ لِجَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفِعَالِهِ فَقَطْ؛ بَلْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ».

وإِنَّمَا يُخْتَارُ لِلصُّحْبَةِ مَنْ يُعَاشِرُ لِلْفَضِيلَةِ لَا لِلْمَنْفَعَةِ وَلَا لِلَّذَّةِ؛ فَإِنَّ عَقْدَ المُعَاشَرَةِ يُبْرَمُ عَلَى هَذِهِ المَطَالِبِ الثَّلَاثَةِ: الفَضِيلَةِ وَالمَنْفَعَةِ وَاللَّذَّةِ.

ذَكَرَهُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ الخَضِرِ بْنُ حُسَيْنٍ فِي «رَسَائِلِ الإِصْلاحِ».

فانتَخِبْ صَدِيقَ الفَضِيلَةِ زَمِيلًا، فَإِنَّكَ تُعْرَفُ بِهِ.

وَقَالَ ٱبْنُ مَانِعٍ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ» - وَهُو يُوصِي طَالِبَ العِلْمِ -: «وَيَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلِ المُجُونِ وَالوَقَاحَةِ وَسَيِّئِي السُّمْعَةِ وَالأَغْبِيَاءِ وَالبُلَدَاءِ؛ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُم سَبَبُ الحِرْمَانِ وَشَقَاوَةِ الإِنْسَانِ».

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**انْتِخَابُ الصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ لَهُ**)؛ والمراد بالانتخاب: الاختيار؛ فيختار المتعلِّم صُحبة صالحة له، فإنَّ هَذَا من تعظيم العلم، وليس من تعظيم العلم أن يصحب المرء فيه أهل البطالة والمجانة والفساد، فإنَّ هَؤُلَاءِ يقطعونه عنه.

ونفوس الخلق مفطورةٌ على اتخاذ مَنْ يعاشرهم ويصحبهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، فهٰذِهِ الآية أصل في كون الإنسان مدنيًّا بالطبع، أي: مفتقرًا إلى مَنْ يكون قرينًا معاشرًا له من الخلق.

قال: (اتِّخَاذُ الزَّمِيلِ ضَرُورَةٌ لَازِمَةٌ فِي نُفُوسِ الخَلْقِ، فَيَحْتَاجُ طَالِبُ العِلْمِ إِلَى مُعَاشَرَةِ غَيْرِهِ مِنَ الطُّلَّابِ؛ لِتُعِينَهُ هَذِهِ المُعَاشَرَةُ عَلَى تَحْصِيلِ العِلْمِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي طَلَبِهِ)؛ فالمقصود من اتخاذ العشير المقارِن: هو إعانتُه على تحصيل العلم، وحمْلُه على الاجتهاد فيه.

ثم قال: (**وَالزَّمَالَةُ فِي العِلْمِ إِنْ سَلِمَتْ مِنَ الغَوَائِلِ**) - أي: من العوادي المُفسدة - (**نَافِعَةٌ فِي الوُصُولِ إِلَى المَقْصُودِ**)، فالمرء عادةً يفتقر إلى صاحبه، والمشتغل بالفضائل - ومنها: العلم - يفتقر أكثر فأكثر إلى صاحبٍ؛ لمشقَّة تلك الفضائل، فإنَّ الفضائل ثقيلةٌ على النَّفس، وممَّا يهوِّنها عليها: اتِّخاذُ الأصحاب في طلبها.

قال: (وَلَا يَحْسُنُ بِقَاصِدِ العُلَا إِلَّا انْتِخَابَ صُحْبَةٍ صَالِحَةٍ تُعِينُهُ؛ فَإِنَّ لِلْخَلِيلِ فِي خَلِيلِهِ أَثَرًا.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»)؛ أي: يكون المرء في دينه حُسنًا وسوءًا بحسب حال مَنْ يصحبه، فليتخيَّر من الأخِلَّاء ما يعينه على صلاح دينه وحفظه.

قال (الرَّاغِبُ الأَصْفَهَانِيُّ: «لَيْسَ إِعْدَادُ الجَلِيسِ لِجَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفِعَالِهِ فَقَطْ؛ بَلْ بِالنَّظَرِ

إِلَيْهِ»)؛ أي: لا يقتصر أثر الجليس مع جليسه بأن يسمع منه قولًا أو يرى منه فِعْلًا، فإن هَٰذَا ممَّا يعمل في النفس عمله، بل يتجاوز ذَٰلِكَ حتى يكون تأثّره بالنظر إليه، ولذَٰلِكَ مَنْ صحبَ العلماءَ وجعلَ لنظرِه حظًّا فيهم ٱنتفع بهَٰذَا النظر، وكذَٰلِكَ إذا صحب مَنْ لا تحسن صحبته فإنَّ نظره إليه يُفسده.

وفي أخبار الإمام أحمدَ أنَّه كان يحضر مجلسه خمسة آلاف لا يكتبون شيئًا، وإنما ينظرون إلى أدبه وهدْيه، فكانوا ينتفعون بالنظر إلى ما كان عليه من الأدب والهدْي فيعمل ذَٰلِكَ في نفوسهم.

وإذا كان هَٰذَا مع خليلٍ محمودِ السيرة ٱنتفع به العبد، وإذا كان مع خليل لا تُحمَد سيرته فلا تظنَّ أنك تتحفظ من قوله وفِعله فقط؛ بل ينبغي أن تتحفَّظ حتَّى من النظر إليه، ولذَٰلِكَ فإنَّ صحبته لا تصلح؛ لأنَّ ضررها عليك وخيم.

ثم قال: (وإِنَّمَا يُخْتَارُ لِلصُّحْبَةِ مَنْ يُعَاشِرُ لِلْفَضِيلَةِ لَا لِلْمَنْفَعَةِ وَلَا لِلَّذَّةِ؛ فَإِنَّ عَقْدَ المُعَاشَرَةِ يُبْرَمُ عَلَى هَٰذِهِ المَطَالِبِ الثَّلَاثَةِ: الفَضِيلَةِ وَالمَنْفَعَةِ وَاللَّذَّةِ)؛ **فإنَّ الأصحاب والأصدقاء ثلاثة أنواع:**

أحدهم: صديق فضيلة.

وثانيهم: صديق منفعة.

وثالثهم: صديق لذة.

(ذَكَرَهُ شَيْخُ شُيُوخِنَا مُحَمَّدُ الخَضِرِ بْنُ حُسَيْنٍ فِي «رَسَائِلِ الإِصْلاحِ»).

فالصداقة تنعقد بين الناس تارةً للمشاركة في فضيلة يطلبونها، ومنكم مَنْ يعرف أنه صار صديقاً لآخر لاجتماعهما في مجلس علم، فنشأت بينهما صداقة بالاجتماع على فضيلة وهي: طلب العلم.

وتارةً تنشأ تلك الصداقة من منفعة يرجوها أحدهما في الآخر؛ فهو يصادقه ويصحبه

لأجل منفعة تصل إليه، كأن يكون ذا مالٍ فينتفع بما ينفِقه من المال عليه في ٱجتماعهما وسفرهما ونحو ذَٰلِكَ.

وتارةً تنعقد الصداقة لأجل لذَّةٍ؛ فهو يجعل فلانًا صديقًا له لأجل ما يصل من اللذة إلى نفسه إذا ٱجتمع به؛ كأن يكون ذا دعابةٍ ولُطفٍ، فيصاحبه لأجل ما يجد من طيب النفس وٱنشراحها وتمتيعها بما يسمع من الفكاهة منه.

وهَـٰذِهِ الأنواع الثلاثة لا يبقى منها إلا صداقة الفضيلة؛ لأنَّ صداقة المنفعة واللذة تنقطعان بانقطاع موجبهما؛ فالَّذي عقد الصداقة معك لأجل منفعة؛ كغناك، فإنه إذا ذهبت تلك المنفعة تركك، فلو قُدِّر أنك ٱفتقرت بعد غنًى أعرض عنك، وكذَٰلِكَ مَنْ عقد معك الصَّداقة لأجل لذة فقدها، فإنه لا يبقي تلك الصداقة التي بينك وبينه، ولا تبقى من الصداقة قويةَ العقد إلَّا الصداقة التي تُعقَد على الفضيلة.

قال: (فانتَخِبْ صَدِيقَ الفَضِيلَةِ زَمِيلًا، فَإِنَّكَ تُعْرَفُ بِهِ)؛ أي: تخيَّر مَنْ تصادقه لأجل الفضيلة فإنَّك تُعرَف به، أي: بالنسبة إليه، بأنك ٱجتمعت معه لأجل فضيلة تطلبانها.

وَقَالَ - وَهُو يُوصِي طَالِبَ العِلْمِ -: «وَيَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلِ المُجُونِ وَالوَقَاحَةِ وَسَيِّئِي السُّمْعَةِ وَالأَغْبِيَاءِ وَالبُلَدَاءِ؛ فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُم سَبَبُ الحِرْمَانِ وَشَقَاوَةِ الإِنْسَانِ»

ثمَّ ختم بوصية من وصايا العلَّامة محمَّد (بْنُ مَانِعٍ فِي «إِرْشَادِ الطُّلَّابِ») - وهو كتاب نافعٌ كما ذكرتُ لكم -، مما فيه قوله: («وَيَحْذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ مُخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَأَهْلِ المُجُونِ وَالوَقَاحَةِ وَسَيِّئِي السُّمْعَةِ وَالأَغْبِيَاءِ وَالبُلَدَاءِ»)، فجميع هَؤُلَاءِ الموصوفين في كلامه مما يُحذَّر ملتمس العلم من مخالطتهم.

قال: («فَإِنَّ مُخَالَطَتَهُم سَبَبُ الحِرْمَانِ وَشَقَاوَةِ الإِنْسَانِ»)؛ أي: إذا خالط المتعلِّم هَؤُلَاءِ النَّاس فإنه يُحرَم الخير الَّذي يرومه، ويشقى بسببهم.

وفي أخبار سفيانَ بن عيينةَ أنَّه كان يقول: «إنِّي لأحرم الرَّجلَ الحديث الغريب لأجل جليسه»؛ أي: لأمنع الرجل حديثًا يفيده لأجل جليسٍ يجالسه؛ فلاطِّلاع سفيانَ حالَه بخبرٍ عنه أو كونِه وفدَ معه فإنَّه يمنعه؛ لأجل نظره إلى ذَٰلِكَ الجليس الَّذي يصحبه، فمثلُه لا يصلح أن يكون محلًّا للعلم.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المَعْقدُ الثَّالث عشَر
بَذْلُ الجُهْدِ في تَحَفُّظ العلْم، وَالمُذاكرَة بِه، والسُّؤالِ عنْهُ

إِذْ تَلَقِّيهِ عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمُذَاكَرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْهُ، فَهَؤُلَاءِ تُحَقِّقُ فِي قَلْبِ طَالِبِ العِلْمِ تَعْظِيمَهِ؛ بِكَمَالِ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ، فَالحِفْظُ خَلْوَةٌ بِالنَّفْسِ، وَالمُذَاكَرَةُ جُلُوسٌ إِلَى القَرِينِ وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَى العَالِمِ.

وَلَمْ يَزَلِ العُلَمَاءُ الأَعْلامُ يَحُضُّونَ عَلَى الحِفْظِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ.

سَمِعْتُ شَيْخَنَا ٱبْنَ عُثَيْمِينَ يَقُولُ: «حَفِظْنَا قَلِيلًا وَقَرَأْنَا كَثِيرًا؛ فَانْتَفَعْنَا بِمَا حَفِظْنَا أَكْثَر مِن ٱنْتِفَاعِنَا بِمَا قَرَأْنَا».

وَبِالمُذَاكَرَةِ تَدُومُ حَيَاةُ العِلْمِ فِي النَّفْسِ، وَيَقْوَى تَعَلُّقُهُ بِهَا، وَالمُرَادُ بِالمُذَاكَرَةِ مُدَارَسَةُ الأَقْرَانِ.

وَقَدْ أُمِرْنَا بِتَعَاهُدِ القُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ العُلُومِ.

رَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنِ ٱبْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**».

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدِ» عِنْدَ هٰذَا الحَدِيثِ: «وَإِذَا كَانَ القُرْآنُ المُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالإِبَلِ المُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا فَكَيْفَ بِسَائِرِ العُلُومِ؟!».

وَبِالسُّؤَالِ عَنِ العِلْمِ تُفْتَحُ خَزَائِنُهُ، فَحُسْنُ المَسْأَلَةِ نِصْفُ العِلْمِ، وَالسُّؤَالَاتُ المُصَنَّفَةُ - كَمَسَائِلِ أَحْمَدَ المَرْوِيَّةِ عَنْهُ - بُرْهَانٌ جَلِيٌّ عَلَى عَظِيمِ مَنْفَعَةِ السُّؤَالِ.

وَهَذِهِ المَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ: بِمَنْزِلَةِ الغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقْيِهِ وَتَنْمِيَتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ آفَتَهُ، **فَالحِفْظُ غَرْسُ العِلْمِ، وَالمُذَاكَرَةُ سَقْيُهُ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَتُهُ.**

❧ ❁ ❁ ❁ ❧

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**بَذْلُ الجُهْدِ**[1] **فِي تَحَفُّظِ العِلْمِ، وَالمُذَاكَرَةِ بِهِ، وَالسُّؤَالِ عَنْهُ**)، **فيبذل طالب العلم جهده في ثلاثة ميادين:**

أحدها: تحَفُّظ العلم؛ أي: طلبُ حفظ}ه.

وثانيها: المذاكرة به؛ أي: مدارسته مع الأقران، فأصل المذاكرة: مفاعلةٌ بالذِّكْر بين ٱثنين فأكثر ، فيجتمع ٱثنان أو أكثر ويذكر كل واحد منهما شيئا من العلم، ثمَّ يذكر له الآخر شيئًا من العلم.

وثالثها: السُّؤال عنه؛ أي: الاستفهام عمَّا يغمُض منه.

ثم قال: (إِذْ تَلَقِّيهِ عَنِ الشُّيُوخِ لَا يَنْفَعُ بِلَا حِفْظٍ لَهُ، وَمُذَاكَرَةٍ بِهِ، وَسُؤَالٍ عَنْهُ، فَهَؤُلَاءِ تُحَقِّقُ فِي قَلْبِ طَالِبِ العِلْمِ تَعْظِيمَهِ؛ بِكَمَالِ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ وَالاشْتِغَالِ بِهِ، فَالحِفْظُ خَلْوَةٌ بِالنَّفْسِ، وَالمُذَاكَرَةُ جُلُوسٌ إِلَى القَرِينِ وَالسُّؤَالُ إِقْبَالٌ عَلَى العَالِمِ)، فانتفاع ملتمس العلم بأخذ العلم عن الشُّيوخ لا يكمُل إلا برعاية الحقِّ في هَٰذِهِ الميادين الثلاثة، فيكون له حظٌّ من الخلوة بنفسه تحفّظًا للعلم، ويكون له حظٌّ من الجلوس إلى قرينٍ يُذَاكِّره العلم الذي أخذه عن شيخه، ويكون له حظٌّ من الإقبال على أهل العلم بسؤالهم.

---

(١) بضمِّ الجيم وفتحها، فيقال: الجُهد، والجَهد، والمراد به: الوُسع والطاقة.

ثـمَّ ذكـر شـيئًا يتعلـق بـهَٰذه الميـادين الثلاثـة، فقـال فـيما يتَّصـل بـالحفظ: (وَلَمْ يَـزَلِ العُلَـمَاءُ الأَعْـلامُ يَحُضُّـونَ) - أي: يحثُّـون - (عَـلَى الحِفْـظِ وَيَـأْمُرُونَ بِـهِ. سَـمِعْتُ شَـيْخَنَا ٱبْـنَ عُثَيْمِـينَ يَقُولُ: «حَفِظْنَا قَلِيلًا وَقَرَأْنَا كَثِيرًا؛ فَانْتَفَعْنَا بِمَا حَفِظْنَا أَكْثَرَ مِنِ ٱنْتِفَاعِنَا بِمَا قَرَأْنَا»)؛ لأنَّ رسوخ المحفوظ في القلب أقوى من رسوخ المقروء، فيُستدعى منه العلم، فالعلم الذي يحضر في النَّفس ممَّا أصله الحفظ أقوى من العلم الَّذي يحضر في النَّفس ممَّا أصلُه القراءة، فإنَّك تنال العلم تارةً بحفظه، وتناله تارةً بقراءته، ولكلٍّ منهما مقامُه الصَّالح له.

والعلم الَّذي تحفظُه أقوى حضورًا في النَّفس، وأسرع ٱستحضارًا من العلم الذي أدركته بالقراءة فقط.

ثم ذكر ما يتصل بالمذاكرة فقال: (وَبِالمُذَاكَرَةِ تَدُومُ حَيَاةُ العِلْمِ فِي النَّفْسِ)؛ أي: يبقى العلم حيًّا في نفسـك، حـاضرًا مشـهودًا، (وَيَقْـوَى تَعَلُّقُـهُ بِهَـا)؛ أي: يقـوى تعلُّـق العلـم بـالنفس، (وَالمُرَادُ بِالمُذَاكَرَةِ مُدَارَسَةُ الأَقْرَانِ).

(وَقَدْ أُمِرْنَا بِتَعَاهُدِ القُرْآنِ الَّذِي هُوَ أَيْسَرُ العُلُومِ)، ففي حديث (ٱبْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ») - أي: المُقيَّدة -، («إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا») - أي: إذا داوم النَّظر إلى ٱستحكام القيد وبقائه بقيت مُقيَّدةً -، («وَإِنْ أَطْلَقَهَا») - لم يبالِ في ضبط هَٰذَا القيد - («ذَهَبَتْ») - أي: ٱنطلقت في المراعي.

(قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي كِتَابِهِ «التَّمْهِيدِ» عِنْدَ هٰذَا الحَدِيثِ: «وَإِذَا كَانَ القُرْآنُ المُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ كَالْإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، مَنْ تَعَاهَدَهَا أَمْسَكَهَا فَكَيْفَ بِسَائِرِ العُلُومِ؟!»)، وأكملُ المعاهدة: عرض القـرآن عـلى آخـر، وهـو الَّـذي كـان في هديـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مـن مدارسـة جبريـلَ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فأكملُ حِفْظِ العلم وتعاهدِه يكون بمذاكرته مع قرينٍ يشاركك العلم.

ثم ذكر ما يتَّصل بالسؤال فقال: (وَبِالسُّؤَالِ عَنِ العِلْمِ تُفْتَتَحُ خَزَائِنُهُ)؛ لأنَّ العلمَ خزائنُ، ومفتاحها السؤال - كما قال بعض السلف -، قال: (فَحُسْنُ المَسْأَلَةِ نِصْفُ العِلْمِ، وَالسُّؤَالَاتُ المُصَنَّفَةُ - كَمَسَائِلِ أَحْمَدَ المَرْوِيَّةِ عَنْهُ - بُرْهَانٌ جَلِيٌّ عَلَى عَظِيمِ مَنْفَعَةِ السُّؤَالِ)؛ لما فيها من عظيم العلم؛ فإنَّك تجد في الكتب المصنَّفة باسم (السؤالات) أو باسم (الفتاوى) كثيرًا من العلم لا تجده في تقرير تلك المسائل في كتب ذَٰلِكَ العلم.

فالانتفاع بالسُّؤالات عظيم جدًّا، وينبغي أن يحرص طالب العلم على أن يكون معه كُنَّاشٌ للسُّؤالات، فكم من سؤالٍ يرد عليكَ ثمَّ تنوي أن تسأل عنه شيخًا ثمَّ تغفلُ فيذهب عنك السُّؤال، ولو أنك سألت هَٰذَا السؤال لكان فيه نفْع عظيم لك، وربما كان فيه نفْع عظيم لأمَّةٍ من الخلق، فربَّما لم يمر ذِكْر هذه المسألة من قبل في ديوان جامع ولا درس، فيكون ذِكْرك هذا السؤال لِمَا ٱنقدح في نفسك نفعًا لك، ثم إذا قيَّدتَ ذَٰلِكَ السؤال ٱنتفعت به ٱنتفاعا كبيرًا.

كسؤالٍ سألني أحدُهم - وتعرفون به شدَّة منفعة السُّؤال النَّافع لا للمتعلِّم فقط؛ بل للمعلم -: أيُّهما أفضل أن يأتي العبد بأذكار الصباح والمساء في المسجد أم في البيت؟ (١)

هَٰذَا السُّؤال ألسنا نحتاج إلى جوابه كلَّ يوم أم لا نحتاج؟، نحتاج، فنحن كل يوم نذكر في الصباح والمساء، لَكِن أيهما أفضل؟

---

(١) ٱبحثوا عن هَٰذِهِ المسألة وٱسألوا عنها، فالَّذين يسألون سيجدون نفعًا في سؤال العلماء، والَّذين يبحثون سيجدون - إن وجدوا - شيئًا في الكتب، والدَّرس القادم الذي يأتي بجواب يكتبه في ورقة ويضعه هنا؛ فمثلا: لو قُدِّر أن أحدكم سأل الشيخ صالح الفوزان، أو الشيخ عبد الرَّحْمَٰن البراك وأجاب على هَٰذا السؤال يأتي به فنستفيد، أو الذي يجد شيئًا في الكتب من جواب هَٰذا السؤال يفيدنا.

ٱنظر إلى عظمة هَٰذَا السُّؤال ، وشدَّة الحاجة إليه، وإنَّك ربَّما لا تجده في كتابٍ ولم يسبق أن سمعت أحدًا أجاب عنه، فسؤالُك عنه منفعة لنا وللمسلمين، فينبغي دائمًا لطالب العلم أن يُقيِّد السُّؤالات التي تعرض له حتى ينتفع هو وينفع المسلمين بها.

ثمَّ قال: (وَهَذِهِ المَعَانِي الثَّلَاثَةُ لِلْعِلْمِ: بِمَنْزِلَةِ الغَرْسِ لِلشَّجَرِ وَسَقْيِهِ وَتَنْمِيَتِهِ بِمَا يَحْفَظُ قُوَّتَهُ وَيَدْفَعُ آفَتَهُ)؛ فالشَّجر يُغرَس أولا، ثم يُسقَى ثانيًا، ثم يُنمَّى ثالثًا.

قال: (**فَالحِفْظُ غَرْسُ العِلْمِ**)؛ فإذا حفظت فكأنَّما تغرس العلم في نفسك؛ فمثلا: الذي يأتي ويحفظ «ثلاثة الأصول»، كأنَّما يغرس هَٰذِهِ المعارف في قلبه.

قال: (**وَالمُذَاكَرَةُ سَقْيُهُ**)؛ أي: مدارستك العلم مع قرينٍ لك بمنزلة سقيك للعلم الذي صار في قلبك.

قال: (**وَالسُّؤَالُ عَنْهُ تَنْمِيَتُهُ**)؛ أي: زيادتُه وتكثيره.

فهٰذا السُّؤال الذي ذكرته لكم مثلًا فيه زيادةٌ للعلم، وتنميةٌ له، فالسائل سمع دروسًا في شرح أذكار الصباح والمساء وبيان جملة من مسائلها، فكان ممَّا يُحتاج إليه هَٰذِهِ المسالة، فهو لم يُنَمِّ علمَه فقط؛ بل هو هو نمَّى علم المعلِّم، ونمَّى الآن علومكم، وأيضًا نَمَّى علوم مَنْ سيُلقى عليهم السُّؤال فينظرون في جوابه، وليس منتهى هَٰذِهِ التَّنمية في العلم فقط، بل التنمية في العمل، وهي أعظم، فإنَّه سيعرف ما هو جواب هَٰذا لسؤال ثم يعمل به.

ومن الفوائد: أنَّ علم علماء نجد في السُّؤالات – هَٰذِهِ قاعدةٌ عند أهل نجد–؛ لأن الشيخ المعلِّم عندهم يبين للطالب قدر ما ينفعه، فإذا سُئل السُّؤال وجدتَ فيه فائدةً لا تجدها في الكتب.

مثلا: ٱستمعوا إلى شرح «الواسطية» للشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شريطين، إذا سمعته ستجده تعليقات قليلة، وهي علمٌ، لَـكِنَّ الأعظم هي السؤالات، تجدُ الشيخ يُسأل سؤالًا ثمَّ يجيب عنه، يبقى الإنسان يبحث مدَّةً طويلةً حتى ينتهي إلى جواب الشيخ.

مثلًا: في «العقيدة الواسطية» سُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل ٱسم (الصبور) من أسماء الله؟، فقال: لا.

هَـٰذِهِ الفائدة إذا ذهبتَ وبحثت في الكتب تجد فيها كلاما وخلافا، والصَّحيح ما ذكره الشيخ.

فالسؤالات نافعة، خاصةً الشيخ ٱبن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، ومن كان على طريقة علماء نجد من تقليل الكلام في البيان للمبتدئين وعموم الناس، تجد أن الفائدة الأكبر في أجوبتهم، فهم يُسألون أسئلة ثم يجيبون عنها.

كذَٰلِكَ في السؤالات التي كان يسألها بعض الحاذقين للشيخ محمَّد ٱبن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تجد أن كثيرًا من هَـٰذِهِ الفوائد الَّتي لا تجدها في شروحه تجدها في سؤالاته، ولذَٰلِكَ من الخطإ الواقع الآن أن يُطبَع شرح شيخٍ ألقاه تسجيلًا ثم تُترَك السؤالات، ففي السُّؤالات حلُّ جملةٍ من الإشكالات التي تقع في الكلام، فلا ينتفع طالب العلم بأن يقرأ شرحا للشيخ فلان ممَّا أُخِذ من الأشرطة ثم لا يسمع الأسئلة، بل لا بد أن يسمع السؤالات حتى تنتفي عنه بعض الإشكالات التي تمر به في أثناء ذَٰلِكَ الشرح، أو يستفيدَ فوائدَ لا يجدها في الشرح.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الرَّابِعَ عَشَرَ
إِكْرَامُ أَهْلِ العِلْمِ وَتَوْقِيرُهُمْ

إِنَّ فَضْلَ العُلَمَاءِ عَظِيمٌ، وَمَنْصِبَهُمْ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ؛ لِأَنَّهُمْ آبَاءُ الرُّوحِ، فَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ كَمَا أَنَّ الوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ؛ فَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِ المُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ.

قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الحَجَّاجِ: «كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا، فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ».

وَٱسْتَنْبَطَ هٰذَا المَعْنَى مِنَ القُرْآنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الأُدْفُوِيُّ فَقَالَ: «إِذَا تَعَلَّمَ الإِنْسَانُ مِنَ العَالِمِ وَٱسْتَفَادَ مِنْهُ الفَوَائِدَ، فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكَهْف:٦٠]، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلْمِذًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ اللهُ فَتَاهُ لِذَٰلِكَ».

وَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِرِعَايَةِ حَقِّ العُلَمَاءِ؛ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَتَوْقِيرًا، وَإِعْزَازًا.

فَرَوَى أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**».

وَنَقَلَ ٱبْنُ حَزْمٍ الإِجْمَاعَ عَلَى تَوْقِيرِ العُلَمَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ.

فَمِنَ الأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَى المُتَعَلِّمِ - مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هٰذَا الأَصْلِ - التَّوَاضُعُ لَهُ، وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ، بَلْ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ؛ لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ، وَلْيَشْكُرْ تَعْلِيمَهُ وَيَدْعُ لَهُ، وَلَا يُظْهِرِ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ، وَلَا يُؤْذِهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَلْيَتَلَطَّفْ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَى خَطَئِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ.

وَمِمَّا تُنَاسِبُ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ هُنَا - بِاخْتِصَارٍ وَجِيزٍ - مَعْرِفَةُ الوَاجِبِ إِزَاءَ زَلَّةِ العَالِمِ، وَهُوَ سِتَّةُ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ.

وَالثَّانِي: التَّثَبُّتُ فِي كَوْنِهَا خَطَأً، وَهَذِهِ وَظِيفَةُ العُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، فيُسْأَلُونَ عَنْهَا.

وَالثَّالِثُ: تَرْكُ ٱتِّبَاعِهِ فِيهَا.

وَالرَّابِعُ: ٱلْتِمَاسُ العُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ.

وَالخَامِسُ: بَذْلُ النُّصْحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ، لَا بِعُنْفٍ وَتَشْهِيرٍ.

وَالسَّادِسُ: حِفْظُ جَنَابِهِ، فَلَا تُهْدَرُ كَرَامَتُهُ فِي قُلُوبِ المُسْلِمِينَ.

وَمِمَّا يُحْذَرُ مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ العُلَمَاءِ؛ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَآلُهُ الإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ؛ كَالازْدِحَامِ عَلَى العَالِمِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ، وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ السُّبُلِ.

❀ ❀ ❀

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**إِكْرَامُ أَهْلِ العِلْمِ وَتَوْقِيرُهُمْ**)؛ أي: إجلالهم؛ لأنَّ (فَضْلَ العُلَمَاءِ عَظِيمٌ، وَمَنْصِبَهُمْ مَنْصِبٌ جَلِيلٌ)، فهم مستحقون للإكرام والإجلال، ولهم من الأبوَّة أبوَّة الروح كما قال: (لِأَنَّهُمْ آبَاءُ الرُّوحِ، فَالشَّيْخُ أَبٌ لِلرُّوحِ كَمَا أَنَّ الوَالِدَ أَبٌ لِلْجَسَدِ)، **فالأبوَّة التي تحيط بالعبد نوعان:**

أحدهما: أبوَّةٌ جسديةٌ؛ وهي لوالده.

والآخر: أبوَّةٌ روحيةٌ؛ وهي لمعلمه وشيخه.

فالمعلِّم والمؤدِّب والشيخ أبٌ للرُّوح؛ كما أن الوالد أب للجسد. ذكره ٱبن تيمية الحفيد.

ثم قال: (فَالاعْتِرَافُ بِفَضْلِ المُعَلِّمِينَ حَقٌّ وَاجِبٌ)؛ أي: لما لهم من الأبوة الروحية.

(قَالَ شُعْبَةُ بْنُ الحَجَّاجِ: «كُلُّ مَنْ سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا، فَأَنَا لَهُ عَبْدٌ»)؛ أي: أنا له مملوكٌ، فإنه قد ملكني بما له من مِنَّة التعليم.

ثم ذكر ٱستنباط هَٰذَا المعنى من القرآن الذي ذكره (مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الأُدْفُوِيُّ فَقَالَ: «إِذَا تَعَلَّمَ الإِنْسَانُ مِنَ العَالِمِ وَٱسْتَفَادَ مِنْهُ الفَوَائِدَ، فَهُوَ لَهُ عَبْدٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكَهْف:٦٠]، وَهُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَلَمْ يَكُنْ مَمْلُوكًا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ مُتَلْمِذًا لَهُ، مُتَّبِعًا لَهُ، فَجَعَلَهُ اللهُ فَتَاهُ لِذَٰلِكَ»)؛ أي: عُدَّ يوشعُ - وهو أحد الأنبياء عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ - بمنزلة الفتى لموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع كونه غير رقيقٍ له؛ لما عليه من مِنَّة الهداية والإرشاد والتَّعليم، فكذَٰلِكَ المعلمون لأجل هَٰذه المِنَّة يكون المتعلمون عندهم بهَٰذه المنزلة.

قال: (وَقَدْ أَمَرَ الشَّرْعُ بِرِعَايَةِ حَقِّ العُلَمَاءِ؛ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَتَوْقِيرًا، وَإِعْزَازًا)، وذكر حديث (عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)، وفيه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ**»)، فالعالم له حقٌّ يجب على العبد أن يعرفه.

(وَنَقَلَ ٱبْنُ حَزْمٍ الإِجْمَاعَ عَلَى تَوْقِيرِ العُلَمَاءِ وَإِكْرَامِهِمْ).

قال: (فَمِنَ الأَدَبِ اللَّازِمِ لِلشَّيْخِ عَلَى المُتَعَلِّمِ - مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ هٰذَا الأَصْلِ - التَّوَاضُعُ لَهُ، وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ، وَعَدَمُ الِالْتِفَاتِ عَنْهُ، وَمُرَاعَاةُ أَدَبِ الحَدِيثِ مَعَهُ، وَإِذَا حَدَّثَ عَنْهُ عَظَّمَهُ)؛ أي: إذا ذكر شيئًا من العلم ينقله عنه فإنه يُعظِّمه بشرطٍ هو المذكور في قوله: (مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ، بَلْ يُنْزِلُهُ مَنْزِلَتَهُ؛ لِئَلَّا يَشِينَهُ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ أَنْ يَمْدَحَهُ)؛ أي: لا يرفعه فوق رتبةٍ ليست له تكون عند العقلاء العارفين دون رتبته التي هو عليها، فيكون ذَٰلِكَ مذمَّةً له من حيث أراد أن يرفعه.

قال: (وَلْيَشْكُرْ تَعْلِيمَهُ وَيَدْعُ لَهُ، وَلَا يُظْهِرِ الِاسْتِغْنَاءَ عَنْهُ)؛ أي: لا يُظهِر أنه مستغنٍ عن

إرشاده وتعليمه.

ثمَّ حذَّر من أذيَّته (بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَلْيَتَلَطَّفْ فِي تَنْبِيهِهِ عَلَى خَطَئِهِ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ)؛ فإن الناس موضع الخطإِ والنسيان، فقد خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ ولهم حظٌّ من الزلة والخطيئة مُعلِّمًا ومتعلِّمًا، فمتى بدر من المعلِّمِ خطأٌ فظهرت منه زلَّةٌ تلطَّف في تنبيهه على خطئه – أي: سلك معه اللطف – فيتحرى أحسن أنواع اللُّطف معه حتَّى يصيب منه مرادَه برجوعه عن خطئه وزلَّته، وشُكرِه المتعلِّم على حُسن تنبيهه على خطئه.

ثمَّ ذكر مما يناسب المقام الإشارة إلى ما ينبغي (إِزَاءَ زَلَّةِ العَالِمِ) – أي: خطئه – (وَهُوَ سِتَّةُ أُمُورٍ):

(الأَوَّلُ: التَّثَبُّتُ فِي صُدُورِ الزَّلَّةِ مِنْهُ)؛ أي: التحقق على وجه الثَّبَت أنَّ هَٰذِهِ الزَّلَّة وقعت منه؛ فقد يُنسَب إلى أحدٍ شيءٌ لا يكون صادرًا عنه من قول أو فعْل.

(وَالثَّانِي: التَّثَبُّتُ فِي كَوْنِهَا خَطَأً)؛ أي: إذا تحقَّق أنَّ ما ذُكِر صدر عنه فإنَّه ينبغي أن يتثبت في أنَّه خطأ فإنَّ الأمر كما قال الأوَّلُ:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

فكم من إنسان يرى أن قولًا أو فِعْلًا هو من جملة الخطإِ لقلَّة علمه.

قال: (وَهَذِهِ وَظِيفَةُ العُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، فيُسْأَلُونَ عَنْهَا)؛ لأنَّ زلَّة العالم من جنس المتشابه الَّذي يخفى، فلا يترشَّح للعلم بها إلَّا مَنْ رسخت قدمُه في العلم. ذكَرَه الشَّاطبيُّ في «المُوافَقَات»، وابنُ رجبٍ في «جامعِ العلومِ والحِكمِ».

فإذا وقع للمتعلِّم أن شيئا تَثَبَّتَ من صدوره عن أحد العلماء زلَّ أنه يكون خطأً وجب عليه أن يعرف خطأه بعرضِه على عالمٍ آخرَ ليبيِّن له أن هَٰذَا القول خطأٌ أم له وجهٌ معتدٌّ به.

قال: (وَالثَّالِثُ: تَرْكُ اتِّبَاعِهِ فِيهَا)؛ أي: ترْك اتِّبَاعِهِ في زلَّته، فلا يُقتدَى به، فإذا تُحقِّق زلل عالم في مسألة ما فليس من العُذر لغيره أن يقال: قد قال به فلانٌ، مع كون العلماء قد بيَّنوا أن

ذَٰلِكَ القول خطأٌ.

ثمَّ قال: (وَالرَّابِعُ: ٱلْتِمَاسُ العُذْرِ لَهُ بِتَأْوِيلٍ سَائِغٍ)؛ أي: طلب عُذْرٍ له بحمْل كلامه على وجه مُحتَملٍ مرعيٍّ في العلمِ.

قال: (وَالخَامِسُ: بَذْلُ النُّصْحِ لَهُ بِلُطْفٍ وَسِرٍّ، لَا بِعُنْفٍ وَتَشْهِيرٍ)؛ لأنَّ المقصود ردُّه عن الخطأ والزَّلل، وإذا قوبل بالتَّشنيع والتَّشهير فإنَّه ربما حملته الأَنَفَة على عدم قبولِ تصويبِ المصوِّبين.

قال: (وَالسَّادِسُ: حِفْظُ جَنَابِهِ، فَلَا تُهْدَرُ كَرَامَتُهُ فِي قُلُوبِ المُسْلِمِينَ)؛ أي: حِفظُ قدرِه، فلا يُذهَب قدرُه من قلوب المسلمين بأن يُعاب ويُزرى عليه ولا يُبالى بمنصبه فتُضعَف حِشمتُه وقدْره في قلوبهم.

ثمَّ ختم بقوله: (وَمِمَّا يُحْذَرُ مِنْهُ مِمَّا يَتَّصِلُ بِتَوْقِيرِ العُلَمَاءِ؛ مَا صُورَتُهُ التَّوْقِيرُ وَمَآلُهُ الإِهَانَةُ وَالتَّحْقِيرُ)؛ فمنَ النَّاس مَنْ يسلك سبيلًا يظنُّ أنها من جنس التَّوقير وهي ممَّا يؤول إلى الإهانة والتَّحقير.

قال: (كَالازْدِحَامِ عَلَى العَالِمِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَيْهِ) - أي: يعني يصير مكانُه ضيِّقًا -، (وَإِلْجَائِهِ إِلَى أَعْسَرِ السُّبُلِ)، بأن يُضَيَّق عليه طريق أو مكان، فإنَّ المجتمعين عليه إنَّما أرادوا إعزازه وإجلالَه، لكِنَّهم جروا على شيءٍ لا ينبغي فِعْله؛ لأنَّ مآل ذَٰلِكَ هو التضييق عليه وإلجائه إلى أعسر سبيل، ممَّا يخالف الإكرام.

والأصل: أن سبيل الإكرام هو سلوك الجادَّة الشرعية، فلا ينبغي لك أن تعدل عن الجادة الشرعية إلى غيرها، فإن هَٰذَا خلاف التوقير.

وممَّا كان يفعله بعض الناس للشيخ محمَّد ٱبن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، وكان هو ينكره عليه أنهم يقبِلُون عليه فيَقبِّلون رأسَه بلا مصافحةٍ، فكان ينهى عن ذَٰلِكَ، ويقول: إنَّكم تتركون سُنَّة المصافحة الَّتي فيها الأجر العظيم وتكتفون بتقبيل الرَّأس، لَٰكِنَّ الإنسان يُسلِّم

ويصافح ثم إذا شاء قبَّل، وإذا شاء لم يُقَبِّل.

فانظر إلى فِقهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدِّلالة على سبيل التوقير ممَّا يظن بعض الناس أنه هو من وجوهه فيتركون سُنة مأمورًا بها، ويعملون عملًا لم يُؤمَر به.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الخَامِسَ عَشَرَ
رَدُّ مُشْكِـلِـهِ إِلَى أَهْـلِـهِ

فَالمُعَظِّمُ لِلْعِلْمِ يُعَوِّلُ عَلَى دَهَاقِنَتِهِ وَالجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ لِحَلِّ مُشْكِلَاتِهِ، وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِمَا لَا تُطِيقُ؛ خَوْفًا مِنَ القَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَالافْتِرَاءِ عَلَى الدِّينِ، فَهُو يَخَافُ سَخْطَةَ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يَخَافَ سَوْطَ السُّلْطَانِ، فَإِنَّ العُلَمَاءَ بِعِلْمٍ تَكَلَّمُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ سَكَتُوا، فَإِنْ تَكَلَّمُوا فِي مُشْكِلٍ فَتَكَلَّمْ بِكَلَامِهِمْ، وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ فَلْيَسَعْكَ مَا وَسِعَهُمْ.

وَمِنْ أَشَقِّ المُشْكِلَاتِ الفِتَنُ الوَاقِعَةُ وَالنَّوَازِلُ الحَادِثَةُ الَّتِي تَتَكَاثَرُ مَعَ ٱمْتِدَادِ الزَّمَنِ.

وَالنَّاجُونَ مِنْ نَارِ الفِتَنِ، السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ المِحَنِ؛ هُمْ مَنْ فَزِعَ إِلَى العُلَمَاءِ ولَزِمَ قَوْلَهُمْ، وَإِنِ ٱشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِمْ، فَطَرَحَ قَوْلَهُ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِمْ، فَالتَّجْرِبَةُ وَالخِبْرَةُ هُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، وَإِذَا ٱخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ لَزِمَ قَوْلَ جُمْهُورِهِمْ وَسَوَادِهِمْ؛ إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ؛ **فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ**.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ٱبْنِ عَاصِمٍ فِي «مُرْتَقَى الوُصُولِ»:

وَوَاجِبٌ فِي مُشْكِـلَاتِ الفَهْـمِ ... تَحْسِينُـنَا الظَّـنَّ بِأَهْـلِ العِلْـمِ

وَمِنْ جُمْلَةِ المُشْكِلَاتِ رَدُّ زَلَّاتِ العُلَمَاءِ، وَالمَقَالَاتِ البَاطِلَةِ لِأَهْلِ البِدَعِ وَالمُخَالِفِينَ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا العُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ.

بَيَّنَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي «المُوَافَقَات» وَٱبْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ العُلُومِ وَالحِكَمِ».

فَالجَادَّةُ السَّالِمَةُ عَرْضُهَا عَلَى العُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَالِاسْتِمْسَاكُ بِقَوْلِهِمْ فِيهَا.

قَالَ الشَّارح وفَّقه اللّٰه:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**رَدُّ مُشكِلِه**) - أي: مُشكِل العلم - (**إِلَى أَهْلِه**) العارفين به.

(فَالْمُعَظِّمُ لِلْعِلْمِ يُعَوِّلُ عَلَى) على أربابه الأكابر في حلِّ مشكلاته، وأشار إلى هَؤُلَاءِ الأكابر بقوله: (يُعَوِّلُ عَلَى دَهَاقِنَتِهِ وَالْجَهَابِذَةِ مِنْ أَهْلِهِ)، **والدَّهاقنة**: جمع دِهقانٍ؛ وهو: قوي التَّصرُّف في حِدَّة، ودالُه مُثَلَّثةٌ؛ فيقال: دِهقان، ودُهقان، ودَهقان.

والمراد بالتَّثليث عند علماء اللغة: الحركات الثلاث؛ الكسر، والفتح، والضم.

وقوله: (**والجهابذة**)؛ جمع جِهْبِذ: بكسر الجيم وتُفتَح أيضًا؛ وهو: النقَّاد الخبير ببواطن الأمور.

فالمشكلات من العلم تُعرَض على الموصوفين بهَذه الأوصاف من قوة التَّصرُّف في العلم والخبرة الكاملة به.

قال: (وَلَا يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِمَا لَا تُطِيقُ) - أي: لا يُدخِل نفسه بالكلام في المشكلات -؛ (خَوْفًا مِنَ القَوْلِ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ، وَالافْتِرَاءِ عَلَى الدِّينِ، فَهُوَ يَخَافُ سَخْطَةَ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ يَخَافَ سَوْطَ السُّلْطَانِ، فَإِنَّ العُلَمَاءَ بِعِلْمٍ تَكَلَّمُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ سَكَتُوا)، فكلامهم الَّذي يبدر منهم هو كلامٌ بعلمٍ، وسكوتهم هو سكوتٌ عن بصرٍ نافذٍ - أي: عقلٍ كاملٍ -، فإنَّ من بيان الحقِّ ما يكون تارةً بالكلام، ومن بيان الحق ما يكون تارةً بالسكوت، فالكلامُ بيانٌ والسكوت بيانٌ، وكلٌّ صالحٌ في مقامه المناسب له.

قال: (فَإِنْ تَكَلَّمُوا فِي مُشْكِلٍ فَتَكَلَّمْ بِكَلَامِهِمْ، وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ فَلْيَسَعْكَ مَا وَسِعَهُمْ)؛ أي: إذا وقع أمر من الأمور المشكلة فتكلَّمَ فيه العلماء فتكلَّمْ فيه بكلامهم، ودع ما تُزِّينه لك نفسك، وإن سكتوا عنه فليسعك ما وسعهم، فإن سكتوا فاسكتْ كما سكتُوا.

ثمَّ قال: (وَمِنْ أَشَقِّ الْمُشْكِلَاتِ الفِتَنُ الوَاقِعَةُ وَالنَّوَازِلُ الحَادِثَةُ الَّتِي تَتَكَاثَرُ مَعَ ٱمْتِدَادِ الزَّمَنِ)؛ فهٰذِهِ الفتن الَّتي تقع في الناس، والنوازل التي تحدث بينهم ممَّا لم يكن من قبل هي من أشقِّ المشكلات الَّتي ينبغي أن ترعى فيها ما تقدَّم، فتنظر إلى العلماء؛ فإن تكلموا فتكلَّم بكلامهم، وإن سكتوا فاسكت كما سكتوا.

قال: (وَالنَّاجُونَ مِنْ نَارِ الفِتَنِ، السَّالِمُونَ مِنْ وَهَجِ المِحَنِ؛ هُمْ مَنْ فَزِعَ إِلَى العُلَمَاءِ ولَزِمَ قَوْلَهُمْ، وَإِنِ ٱشْتَبَهَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِمْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِمْ، فَطَرَحَ قَوْلَهُ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِمِ)؛ أي: إذا سمع منهم كلامًا لَزِمهم، وإن وقعت شبهةٌ له إزاءَ كلامِهم أحسن الظَّنَّ بهم، فطرح قولَه وأخذ بقولهم، أي: ترك قولَه وأخذ بقولِهم.

وعلَّله بقوله: (فَالتَّجْرِبَةُ وَالخِبْرَةُ هُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا)؛ أي: لهم من الخبرة والتَّجربة ما ليس لك، وليس المرادُ بتلك الخبرة شيئًا يكون بالسِّنِّ فقط، بل شيئًا يكونُ بما يقع لهم من الاتِّصال بوليِّ الأمر، فليس الشَّأن أن تجدَ ٱبن سبعينَ وٱبن سبعين يتكلمان، بلِ الشَّأنُ أن يكون كلٌّ من المتكلِّميْن له علمٌ.

ثمَّ ربما فَضُل أحدهما على الآخر بأن تكون له درايةٌ بحقائقَ النَّوازل الحادثة لاتِّصاله بوليِّ الأمر؛ فمثلًا: لأعضاء هيئة كبار العلماء عامَّةً، واللجنة الدائمة خاصَّةً، ومفتي البلاد خاصَّةً خاصَّةً من العلم بالوقائع والأحوال ما ليس لغيرهم من العلماء وإن شاركوهم في ٱسم العلم، فيكون لهَؤُلَاءِ من البصيرة في تلك النوازل والحوادث ما لا يكون لغيرهم، ولو قُدِّر أنَّه أعلم منهم أو أكبر منهم في السن.

قال: (وَإِذَا ٱخْتَلَفَتْ أَقْوَالُهُمْ لَزِمَ قَوْلَ جُمْهُورِهِمْ وَسَوَادِهِمْ) - أي: أكثرهم - (إِيثَارًا لِلسَّلَامَةِ) - أي: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، (**فَالسَّلَامَةُ لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ**)، فإنَّ العبد إنَّما يطلب العلمَ ليسلمَ من المطالبة بالأمر والنَّهي، فإذا عرضت هَٰذِهِ الحال فلَزِمَ الجادة فيها أصاب السَّلامة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس المراد أن يسلم من كلام النَّاس فيه، فإنَّه «مَنْ ظنَّ أنَّه

يسلم من كلام النَّاس فيه فهو مجنونٌ» - كما قال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى -، لَـٰكِنَّ الشَّأن أن تسلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالنَّاس يمدحونك تارةً ويقدحون فيك تارةً أخرى، ويذكرونك بخيرٍ تارةً، ويذكرون بشرٍّ تارةً أخرى، والعاقل لا يرعى هَـٰذَا في الناس فهـٰذِهِ حالهم التي جعلهم الله عَزَّوَجَلَّ عليها، لَـٰكِن يرعى حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ في كلامه، فهو يتكلم مع ملاحظة حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ أَحَبَّ الناس أم كرهوا، مدحوا أم قدحوا.

ثم قال: (وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ٱبْنِ عَاصِمٍ فِي «مُرْتَقَى الوُصُولِ»:

وَوَاجِبٌ فِي مُشْكِلَاتِ الفَهْمِ تَحْسِينُنَا الظَّنَّ بِأَهْلِ العِلْمِ

ثم قال: (وَمِنْ جُمْلَةِ المُشْكِلَاتِ رَدُّ زَلَّاتِ العُلَمَاءِ، وَالمَقَالَاتِ البَاطِلَةِ لِأَهْلِ البِدَعِ وَالمُخَالِفِينَ، فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ فِيهَا العُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ. بَيَّنَهُ الشَّاطِبِيُّ فِي «المُوَافَقَات» وَٱبْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ العُلُومِ وَالحِكَمِ»)؛ لأنَّ الزَّلَّات الصادرة من العلماء والبدعَ الواقعةَ في النَّاس من جنس المشتبه والمتشابه، ولا يتمكن من بيان الحقِّ فيه من ردِّ الزَّلَّة وإبطال البدعة إلا العالم الراسخ، نص عليه الشَّاطِبِيُّ فِي «المُوَافَقَات» وَٱبْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ العُلُومِ وَالحِكَمِ»، وطالبُ العلم وظيفتُه تبليغ أقوال العلماء في الزَّلَّات والبدع؛ لأنَّ مبادرته إلى ردِّ شيءٍ مع عدم رسوخِ قدمِه ربَّما أوقعه في الباطل، فربَّما أراد ردَّ بدعة فوقع في بدعةٍ أخرَى، وربَّما أراد ردَّ زلَّةٍ فوقع في زلَّةٍ أخرى.

ومَنْ يعرف أحوال الناس على التَّفصيل يرى هَـٰذَا فيهم جليًّا؛ فكم من إنسانٍ يقوم لنصرة السُّنَّة وهو لم تكتمل آلته في رسوخ القدم بالردِّ على بدعةٍ أو إيضاح زلَّةٍ، فيقع فيما يقابل ذَٰلِكَ من الزلَّات والبدع، أمَّا العالم الرَّاسخ فإنَّه إذا تكلَّم في ردِّ بدعةٍ ردَّها بالحقِّ، وتحفَّظ من الوقوع في بدعةٍ أخرى، وكذا إذا بيَّن زلَّةً بيَّنها على وجه الحقِّ فلم يقع في زلَّةٍ أخرى.

ثم قال: (فَالجَادَّةُ السَّالِمَةُ عَرْضُهَا عَلَى العُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَالِاسْتِمْسَاكُ بِقَوْلِهِمْ فِيهَا)؛ فالجادَّة السالمة من كل ما يُفسدها إذا وقعت هَٰذِهِ المشكلات أن تعرضها على العلماء الرَّاسخين، ثم إذا عرضتها عليهم أن تستمسك بقولهم في تلك المسألة.

فمنَ النَّاس مَنْ يُعرِض عن هَٰذِهِ الجادَّة بإعراضه عن سؤال العلماء.

فمثلًا: إذا وقعت واقعة من الحوادث؛ لا يذهب لسؤال العلماء، فتجده يسأل خطيبَ مسجدهم لأنَّه بليغٌ، أو يسأل رجلًا متكلِّمًا لأنه له براعة في الكلام والبلاغة، أو يسأل شاعرًا متحمسًا ولا يسأل العلماء.

وتارةً أخرى تجد منهم مَنْ يسأل العلماء، فإذا أرشدوه إلى ما ينفعه أعرض عنهم وطلب غيرهم.

فممكن الآن واحد منكم مثلًا يذهب إلى أحد العلماء في الإفتاء أو غيره فيسأله: ما رأيك في التَّدخُّل الرُّوسي في سوريا؟، فيقول: يا ولدي ٱشتغل بما ينفعك، فلا يعجبه هَٰذَا الكلام، ويذهب ويطلب غيره، يقول: ما وجدت عندهم جواب، وهَٰذَا الَّذي قاله لك ما هو؟، أليس جوابًا؟ قال: ٱشتغل بما ينفعك، أنت عليك وظائف من العبودية، وهٰذِهِ الأمور قد جاء البيان في القرآن فيها، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النِّساء:٨٣]؛ فهٰذِهِ الوظيفة تُرَدُّ إلى مَنْ بيده الأمر من ولاية الحكم والسُّلطان، وولاية العلم والفُتيا، والَّذي ليس له شيءٌ من الأمر لا تُرَدُّ إليه، والمتولِّي للأمر يعرف الطَّريقَ النَّافعَ في تدبيره، فاشتغل أنت بما ينفعك، ودع غيرك متولِّيًا لما سيسأله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، وٱجتهد أنت فيما ينفعك، لتنفع الناس فيما يُستَقبل إذا ٱحتيج إليك، ولا تجد أحدًا يقفز هَٰذِهِ القفزات ويورد نفسه على ما ليس لها إلَّا سقط على أمِّ رأسه.

فقد رأينا في سالف الأيَّام مَنْ أجابه العلماء بمثل هَٰذِهِ الأجوبة فضاق صدره بها وٱنتهى به الأمر إلى تكفير النَّاس في هَٰذا البلد علماء وأمراء والخروج عليهم بالسِّلاح، كان سؤاله للمشايخ هكَذَا وكان جوابهم هكَذَا، لكِنَّه لم يستنصح وأبى حتَّى ٱنتهى أمره إلى تكفير النَّاس في هَٰذا البلد ، بدأ شيئا فشيئا بتكفير الحكومة، ثمَّ بعد ذَٰلِكَ بتكفير الجنود الذين يعملون عندها، ثم بتكفير العلماء لأنَّهم ساكتون عن بيان الحقِّ، ثم بتكفير سائر الناس لأنهم ساكتون عن الكفر بالطاغوت، ولا يكفرون بالطاغوت، فلا يكفر بالطاغوت عنده إلَّا فلان وفلان وفلان، هَٰؤُلَاءِ هم الكافرون بالطَّاغوت، وباقي الناس هم كفَّارٌ عنده، فانتهى الأمر إلى أن خرج بالسِّلاح ثم قُتِل، وكان مبتدأ أمرِه أنَّه سأل هَٰذِهِ السُّؤالات فقيل له: ٱشتغل بما ينفعك، لكِنَّه لم يشتغل بما ينفعه.

والمرء ينبغي أن يعظ نفسه بغيره، فالسَّعيد مَنْ وُعِظَ بغيره، والشَّقيُّ مَنْ وُعِظَ النَّاس به، الشَّقيُّ هو الَّذي يقع فريسةً لهٰذِهِ الأهواء في أبواب العلم أو أبواب العمل، أو أبواب الدَّعوة، أو أبواب الجهاد أو غيرها، ثمَّ يُعرِض فيها عن الحقِّ الحقيق ويقع في الشُّرور الَّتي تنتهي به إلى سوء العاقبة والمآلِ.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ السَّادِسَ عَشَرَ
تَوْقِيرُ مَجَالِسِ العِلْمِ، وَإِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ

فمَجَالِسُ العُلَمَاءِ كَمَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ.

قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَجَالِسِ العُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ؛ أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَى ٱمْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: طَلَقَتِ ٱمْرَأَتُهُ، وَيَجِيءُ آخَرَ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ عَلَى ٱمْرَأَتِهِ بِكَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: لَيْسَ يَحْنَثُ بِهَذَا القَولِ، وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِنَبِيٍّ أَوْ لِعَالِمٍ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ ذَلِكَ».

فَعَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَعْرِفَ لِمَجَالِسِ العِلْمِ حَقَّهَا، فَيَجْلِسَ فِيهَا جِلْسَةَ الأَدَبِ، وَيُصْغِي إِلَى الشَّيْخِ نَاظِرًا إِلَيْهِ؛ فَلَا يَلْتَفِتُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَلَا يَضْطَرِبُ لِضَجَّةٍ يَسْمَعُهَا، وَلَا يَعْبَثُ بِيَدَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنِدُ بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يَتَّكِئُ عَلَى يَدِهِ، وَلَا يُكْثِرُ التَّنَحْنُحَ وَالحَرَكَةَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَ جَارِهِ، وَإِذَا عَطَسَ خَفَضَ صَوْتَهُ، وَإِذَا تَثَاءَبَ سَتَرَ فَمَهُ بَعْدَ رَدِّهِ جَهْدَهُ.

وَيَنْضَمُّ إِلَى تَوْقِيرِ مَجَالِسِ العِلْمِ إِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ الَّتِي يُحْفَظُ فِيهَا، وَعِمَادُهَا الكُتُبُ، فَاللَّائِقُ بِطَالِبِ العِلْمِ: صَوْنُ كِتَابِهِ، وَحِفْظُهُ وَإِجْلَالُهُ، وَالاعْتِنَاءُ بِهِ، فَلَا يَجْعَلُهُ صُنْدُوقًا يَحْشُوهُ بِوَدَائِعِهِ، وَلَا يَجْعَلُهُ بُوقًا، وَإِذَا وَضَعَهُ وَضَعَهُ بِلُطْفٍ وَعِنَايَةٍ.

رَمَى إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ يَوْمًا بِكِتَابٍ كَانَ فِي يَدِهِ، فَرَآهُ أَبُو عَبْدِ الله أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ، فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَهَكَذَا يُفْعَلُ بِكَلَامِ الأَبْرَارِ؟!».

وَلَا يَتَّكِئُ عَلَى الكِتَابِ، أَوْ يَضَعُهُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَإِذَا كَانَ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَى شَيْخٍ رَفَعَهُ عَنِ الأَرْضِ وَحَمَلَهُ بِيَدَيْهِ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**تَـوْقِيرُ مَجَـالِسِ العِلْـمِ، وَإِجْلَـالُ أَوْعِيَتِـهِ**)، وأوعية العلم: ما يُحفَظ ويُثبَت فيها، وعمادُها: الكتب، ومن جنسها: الأشرطة الصوتية، وما جرى مجراها، فإنَّها تُسمى: أوعية العلم.

ثم ذكر ما يدعو إلى توقير مجالس أهل العلم بقوله: (فَمَجَالِسُ العُلَمَاءِ كَمَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ)؛ لأنَّهم يقومون بالنِّيابة عنهم فيها؛ فإنَّ مجالس الأنبياء كانت لبيان حُكم الله، ومجالس العلماء ليس فيها إلَّا بيان حُكم الله، وذكر فيها كلام (سَهْلِ بْنِ عَبْدِ الله) التُستريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: («مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَجَالِسِ العُلَمَاءِ»)؛ أي: لأنَّها تحاكيها، فهي شبيهةٌ بها؛ لما فيها من بيان حُكم الله عَزَّوَجَلَّ فيما يحتاج إليه النَّاس كالمذكور في كلامه.

ثم قال: (فَعَلَى طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَعْرِفَ لِمَجَالِسِ العِلْمِ حَقَّهَا، فَيَجْلِسَ فِيهَا جِلْسَةَ الأَدَبِ) - أي: الجلسة المتأدِّب فيها -، (وَيُصْغِي إِلَى الشَّيْخِ نَاظِرًا إِلَيْهِ) - أي: يُقبِل على الشيخ مُلقيًا نظره إليه -، (فَلَا يَلْتَفِتُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، وَلَا يَضْطَرِبُ لِضَجَّةٍ يَسْمَعُهَا)؛ أي: لا يتحرَّك لأجل صوتٍ عالٍ سمعه، فإنَّه جلس هنا لأجل العلم ولم يجلس لأجل أن يستمع إلى مصادر الأصوات الَّتي يسمعها هنا أو هناك.

(وَلَا يَعْبَثُ بِيَدَيْهِ أَوْ رِجْلَيْهِ، وَلَا يَسْتَنِدُ بِحَضْرَةِ شَيْخِهِ، وَلَا يَتَّكِئُ عَلَى يَدِهِ، وَلَا يُكْثِرُ التَّنَحْنُحَ وَالحَرَكَةَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ مَعَ جَارِهِ، وَإِذَا عَطَسَ خَفَضَ صَوْتَهُ، وَإِذَا تَثَاءَبَ سَتَرَ فَمَهُ بَعْدَ رَدِّهِ جَهْدَهُ)، فإنَّ المذكورات أنواعٌ من فنون حِفظ حقِّ مجلس العلم.

ثم قال: (وَيَنْضَمُّ إِلَى تَوْقِيرِ مَجَالِسِ العِلْمِ إِجْلَالُ أَوْعِيَتِهِ الَّتِي يُحْفَظُ فِيهَا، وَعِمَادُهَا الكُتُبُ، فَاللَّائِقُ بِطَالِبِ العِلْمِ: صَوْنُ كِتَابِهِ، وَحِفْظُهِ وَإِجْلَالُهُ، وَالاعْتِنَاءُ بِهِ، فَلَا يَجْعَلُهُ صُنْدُوقًا يَحْشُوهُ بِوَدَائِعِهِ)؛ أي: لا يجعله بمنزلة الصُّندوق الذي يحفظ فيه الأشياء، فتجده يضع هنا أوراقاً كثيرة، ثم بعد ذَٰلِكَ يضع بطاقات له، ثم بعد ذَٰلِكَ يضع أقلامًا، فكأنَّه أنزل الكتابَ

منزلة الصُّندوق في حِفْظ الأشياء.

قال: (وَلَا يَجْعَلُهُ بُوقًا)؛ أي: لا يجعله بمنزلة البوق بأن يردَّ بعضَه على بعضٍ، بأن يمسكه على صورة البوق الَّذي يُنفَخ فيه، أو يمسكه حال القراءة بأن يجعله نصفَ بوقٍ، فإمَّا أن يجعله هكَذَا أو يجعل بعضه هكَذَا، فإن هٰذَا من خلاف الأدب مع الكتاب، فإنَّ الكتاب يُحفَظ ويُرفَع باليدين أو أحدهما، ببسطه، لا بطيِّ بعضه.

قال: (وَإِذَا وَضَعَهُ وَضَعَهُ بِلُطْفٍ وَعِنَايَةٍ)؛ أي: إذا وضع الكتاب على الأرض أو غيرها فإنَّه يضعه بلطفٍ وعنايةٍ.

قال: (رَمَى إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ يَوْمًا بِكِتَابٍ كَانَ فِي يَدِهِ) أي: أقبَل ومعه كتاب فرماه على الأرض، (فَرَآهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ، فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَهٰكَذَا يُفْعَلُ بِكَلَامِ الأَبْرَارِ؟!»)؛ يعني: أَهٰكَذَا يهون على الإنسان أن يُلقي بشدَّة كتابًا فيه كلام الأبرار - أي: أهل البرِّ والطَّاعة -، فكيف إذا كان فيه القرآن والسُّنَّة؟!، هٰذَا أعظم، تجدُ بعض الإخوان يأتي بـ«العقيدة الواسطية» أو بـ«كتاب التوحيد» ثم بعد ذٰلِكَ يرميه ويلقيه على الأرض بشدة، فإذا قيل: يا أخي، فيه آيات، وفيه أحاديث، قال: يا أخي! هٰذَا تشدُّدٌ؛ هٰذَا ليس بتشدُّد، هٰذَا الأدب، والحال التي تفعلها أنتَ حالُ ضياعٍ، هٰذَا سوء أدب مع كلام الله وكلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتب أهل العلم، فالأدب أن تجعله على الأرض إن شئت بلطف وعناية، وإن تمكنتَ من أن تجعله بين يديك في مكان مرتفع فهٰذَا أكمل في حفظ العلم وتوقيره وإجلاله.

ثم قال: (وَلَا يَتَّكِئُ عَلَى الكِتَابِ، أَوْ يَضَعُهُ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَإِذَا كَانَ يَقْرَأُ فِيهِ عَلَى شَيْخٍ رَفَعَهُ عَنِ الأَرْضِ وَحَمَلَهُ بِيَدَيْهِ)، فإذا كان يقرأ في الكتاب على الشيخ فإنه يرفعه على الأرض ويحمله بيده ويقرأ فيه على هٰذِهِ الصفة.

وخلاف ذٰلِكَ هو خلاف الأدب، ومَنْ لم يتأدب مع أوعية العلم لن ينال ما فيها من

العلم، فإذا لم تستعمل الأدب معها لن تنال العلم، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ حُرَم أهلِها، ومن حِفْظ حُرمة أهلها أن يحبس الله عن المتعلم العلم الذي فيها.

نحن صِرنا إلى حالٍ لا ندري نبكي أم نضحك، فأحدهم يحضر الدرس وقد وضع الكتاب - يا إخوان - بين قدميه ومسنده بهما، هٰذَا يحصِّل العلم؟!، لا يمكن، بلسان الفطرة لو يراه إنسان يقول: هٰذه ليست حال إنسان يطلب العلم، الذي يطلب العلم يُقبِل على الكتاب الذي يأخذ منه العلم بتعظيم وإجلال، لا أن يلقيه بدون عناية، ثم يريد أن يكون العلم الذي في الكتاب في قلبه، الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ العلم عن هٰذه القلوب المدنَّسة، ما يجعل العلم فيها، ولو حفظوا المعلومات لا ينتفعون بها في الاستنباط والفهْم والعمل والدعوة والإصلاح.

لَكِن ذهب أهل الغيرة، فأهل الغيرة على العلم ما يسمحون بهَٰذَا؛ بل يطردون الطَّالب؛ حَضَرَ فِي مَجْلِسِ شَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ الجَرَّاحِ فَقِيهِ الكُوَيْتِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَجُلٌ، فَطَوَى الكِتَابَ عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ - يَعْنِي: صُورَةَ بُوقٍ -، فَزَجَرَهُ الشَّيْخُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى حَمْلِهِ حَمْلًا رَفِيقًا، ثُمَّ أَعَادَ ثَانِيَةً، فَنَبَّهَهُ الشَّيْخُ، ثُمَّ أَعَادَهُ ثَالِثَةً فَطَرَدَهُ الشَّيْخُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَجْلِسِهِ، هَٰذَا هو الدواء، بعض النَّاس ما ينفع معه إلَّا الكيُّ، إذا كان شيخك المعلم يعلمك الأدب مع العلم ثم بعد ذَٰلِكَ لا تبالي، وتقول: هَٰذَا شيخ كبير في السِّنِّ، هَٰذَا على طريقة الأوَّلين، النَّاس الحمد لله تطوروا الآن، لسنا متعبِّدين بهَٰذَا الشَّيء، ولا نعلم دليلا من القرآن والسُّنة على أنَّك لا تضع الكتاب هكَذَا، فهٰذا لا ينال علم الكتاب والسُّنة، هٰذا ما له إلا أن يُخرَج من المجلس.

حتَّى العوام عندنا كان عندهم تعظيم للعلم، وما كانوا يرضون بهَٰذه الأشياء.

مرةً أحدهم عندنا في نجد، أتاه ناسٌ منتسبين للطَّلب، فصنع علهم عَشاء، فجعلوا يتكلَّمون في العلم قبل العشاء، فأحدهم لمَّا ذكروا مسألةً أساء الأدب مع ٱبن القيم، قال:

ٱبن القيم عليه أشياء وأشياء، وكان كذا وكان كذا، فقام الرجل وقال: المجلس يتعذَّركم، والذين يتكلمون في ٱبن القيم ليس لهم عندي عشاء، هَٰذَا صاحب الدِّين الصحيح، فهم أساءوا الأدب مع عالمٍ معروفٍ، وإن أخطأ فيما أخطأ فيه، فلا يكون ذَٰلِكَ بتقليل الأدب معه، وهضم جنابه، وإرسال اللِّسان في الكلام فيه بغير حقٍّ، بل يبين خطؤه بقدر ما يندفع به الخطأ، أما الزِّيادة عن ذَٰلِكَ بالتَّشريب والعيب والتنقُّص ونحو ذَٰلِكَ ؛ فهَٰذَا ليس من الدين، وصاحب الدِّين المكين لا يرضى بهَٰذَا في مجلسه، هَٰذَا كان رجلا عامِّيًا، لَٰكِن كان يجلس عند العلماء ويسمع أنَّ ٱبن القيم عالمٌ ممَّنْ خدم الإسلام، وله مآثر حسان فيه، فلما سمع كلامهم فيه قال لهم: المجلس يتعذَّركم، والذي لا يحفظ قدر ٱبن القيم ليس له عندي عشاء؛ هَٰذِهِ الحال شديدةٌ على النَّاس عندنا، أن يأتي ضيوفٌ ولا يكرمهم، لَٰكِن هَٰؤُلَاءِ الذين لا يحفظون قدر ٱبن القيم وأمثاله من العلماء لا يستحقون الإكرام.

قال المصنِّف وفَّقه اللّٰه:

المَعْقِدُ السَّابِعَ عَشَرَ
الذَّبُّ عَنِ العِلْمِ، وَالذَّوْدُ عَنْ حِيَاضِهِ

إِنَّ لِلْعِلْمِ حُرْمَةً وَافِرَةً، تُوجِبُ الانْتِصَارَ لَهُ إِذَا تُعُرِّضَ لِجَنَابِهِ بِمَا لَا يَصْلُحُ.

وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الانْتِصَارُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ فِي مَظَاهِرَ؛ مِنْهَا:

الرَّدُّ عَلَى الـمُخَالِفِ، فَمَنِ ٱسْتَبَانَتْ مُخَالَفَتُهُ لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ حَمِيَّةً لِلدِّينِ وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْهَا: هَجْرُ الـمُبْتَدِعِ؛ ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَى الفَرَّاءُ إِجْمَاعًا.

فَلَا يُؤْخَذُ العِلْمُ عَنْ أَهْلِ البِدَعِ، لَكِنْ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَيْه فَلَا بَأْسَ؛ كَمَا فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ لَدَى الـمُحَدِّثِينَ.

وَمِنْهَا: زَجْرُ الـمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّى فِي بَحْثِهِ، أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ أَوْ سُوءُ أَدَبٍ.

وَإِنِ ٱحْتَاجَ الـمُعَلِّمُ إِلَى إِخْرَاجِ الـمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ؛ زَجْرًا لَهُ، فَلْيَفْعَلْ؛ كَمَا فَعَلَ سُفْيَانُ، وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ مَعَ عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي دَرْسِهِ.

وَقَدْ يُزْجَرُ الـمُتَعَلِّمُ بِعَدَمِ الإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ إِجَابَتِهِ، فَالسُّكُوتُ جَوَابٌ؛ قَالَ الأَعْمَشُ.

وَرَأَيْنَا هَذَا كَثِيرًا مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ؛ مِنْهُمُ العَلَّامَةُ ٱبْنُ بَازٍ، فَرُبَّمَا سَأَلَهُ سَائِلٌ عَمَّا لَا يَنْفَعُهُ، فَتَرَكَ الشَّيْخُ إِجَابَتَهُ، وَأَمَرَ القَارِئَ أَنْ يُوَاصِلَ قِرَاءَتَهُ، أَوْ أَجَابَهُ بِخِلَافِ قَصْدِهِ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**الـذَّبُّ عَـنِ العِلْـمِ، وَالـذَّوْدُ عَـنْ حِيَاضِـهِ**)؛ أي: الدَّفع عن العلم، وحماية موارده؛ لأنَّ (لِلْعِلْمِ حُرْمَةً وَافِرَةً، تُوجِبُ الانْتِصَارَ لَهُ إِذَا تُعُرِّضَ لِجَنَابِهِ بِمَا لَا يَصْلُحُ)، فالعلم من شعائر الدين، وله حُرمة مُعظَّمة.

ثم ذكر مظاهر هَذَا الانتصار عند أهل العلم، فمنها: (الرَّدُّ عَلَى الْمُخَالِفِ، فَمَنِ ٱسْتَبَانَتْ مُخَالَفَتُهُ لِلشَّرِيعَةِ رُدَّ عَلَيْهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ حَمِيَّةً لِلدِّينِ وَنَصِيحَةً لِلْمُسْلِمِينَ)، و«لم يزل النَّاس يردُّ بعضهم على بعض». قاله الإمام أحمد.

فمنْ بدر منه شيءٌ خالف فيه الشَّريعة فإنه يُرَدُّ عليه حِفظًا للشَّريعة، ولا يُمنع من الرَّدِّ، فليس الرَّدُّ على المخالِف مستشنعًا مستبشعًا ما لم يخرج عن جادة الشَّريعة، وشرطُه كما ذكر ٱبن رجب: إذا أحسن الخطاب وأصاب الجواب، **فالرُّد على المخالِف ممدوحٌ بجمع هَذَين الأمرين:**

فأحدهما: إصابة الحقِّ في ردِّه.

والآخر: سلوك الأدب الحسن فيه.

ثم قال: (وَمِنْهَا: هَجْرُ الْمُبْتَدِعِ؛ ذَكَرَهُ أَبُو يَعْلَى الفَرَّاءُ إِجْمَاعًا)، فإنَّ المبتدع يُهجَر؛ حِفظًا للدين وحمايةً له، (فَلَا يُؤْخَذُ العِلْمُ عَنْ أَهْلِ البِدَعِ)، فالأصل أن العلم لا يُؤخَذ إلا عن السُّنِّيِّ السَّالم من البدع، (لَكِنْ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَيْهِ) - كدراسة نظاميَّةٍ لا مَحيدَ عنها - (فَلَا بَأْسَ)، قال: (كَمَا فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ لَدَى الْمُحَدِّثِينَ)، فإنَّه تحدُثُ للنَّاس أحوال تستدعي مثل هَـٰذِهِ الأحكام.

قال: (وَمِنْهَا: زَجْرُ الْمُتَعَلِّمِ إِذَا تَعَدَّى فِي بَحْثِهِ، أَوْ ظَهَرَ مِنْهُ لَدَدٌ) - أي: خصومة - (أَوْ سُوءُ أَدَبٍ)، فإذا تجاوز المتعلِّم حدَّه في البحث - أي: في مراجعة شيخه في العلم -، أو ظهر

منه خصومة أو سوء أدب؛ فإن من الانتصار للعلم أن يُزجَر المتعلِّم بأن يُنهى عن ذَٰلِكَ ويُقطَع الكلام في العلم معه.

قال: (وَإِنِ ٱحْتَاجَ الْمُعَلِّمُ إِلَى إِخْرَاجِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ مَجْلِسِهِ؛ زَجْرًا لَهُ، فَلْيَفْعَلْ)؛ أي: ولو ٱضطرَّ المعلِّم إلى ٱستصلاح المتعلِّم بزجره بأن يُخرجه من مجلسه فليفعل؛ (كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ شُعْبَةُ) - وهو ٱبن الحجَّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ - (مَعَ عَفَّانَ بْنِ مُسْلِمٍ) الصَّفَّار (فِي دَرْسِهِ).

فكان عفَّان يراجع شعبة في الحديث، فيثقل ذَٰلِكَ على شعبةَ فيخرجه شعبة من مجلسه، وكان يفعل عفَّان يرجع مرَّةً ثانيةً في المجالس الأخرى، فيترك شعبةَ حتَّى يطيب خاطره ويتَّسع صدره، ثمَّ يرجع إليه في مجلسٍ آخر، وإذا أخرجه رجع إليه ونفسُه طيِّبةٌ.

الآن في الجامعة: الدكتور يطرد الطالب من القاعة فيخرج، وفي المحاضرة الثانية يحضر وفي نفسه كراهيَّة، أما عفَّان فكان يحضر وليس في نفسه كراهية؛ لأنَّه حريصٌ على العلم، ويعرف أنَّ معلمه ما فعل هَٰذَا إلا لأجل منفعته.

أما الآن لو أن معلِّما قام في المسجد، وقال لطالب: لو سمحت يا أخي، ٱخرج؛ لأنَّك غير مؤدب، لاستعظم الناس هَٰذَا، وقالوا: كيف يطرد النَّاس من بيوت الله؟!، هَٰذَا يصدُّ الناس عن مساجد الله، ويذكرون الآيات والأحاديث في ذَٰلِكَ، وهَٰذَا من الجهل، وإلَّا فمن توقير العلم وإعظامه أنَّ الذي لا يتأدَّب مع العلم ولا يحفظ قدره ليس له إلا الطَّرد، سواء رجع وأناب وٱنتفع أم لا.

ولذَٰلِكَ لمَّا كان مشايخنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يستعملون هَٰذَا نفعوا وٱنتفعوا، ففي أحد مجالس شيخنا الشيخ فهد بن حُمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظهر من بعض مَنْ كان يجلس معه لدَدٌ وخصومةٌ في مراجعته في العلم، وكان في ملحقٍ خارج بيته في غير الدروس التي في مسجده، فقام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأطفأ النور، وقال: المجلس يتعذّركم، ودخل وتركهم، وقال: إذا أردتم أن تجلسوا ٱجلسوا، وإذا

أردتم أن تخرجوا ٱخرجوا؛ لأنَّه لا يصلحهم إلا مثل هَٰذِهِ الحال، فتجده يستعمل معهم هَٰذِهِ الحال لأنَّها أنفع.

والشيخ عبد الله بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان كفيفًا لمَّا كان في مجلسه مرَّة وتكلَّم بعض الناس بكلام في مسألة يتكلم فيها طرده الشيخ من المجلس، قال: لا تحضر دروسنا جزاك الله خيرا.

أحد المشايخ الذين يُدَرِّسون الآن وله في العلم حظٌّ وافرٌ مرَّةً طرده أحد المشايخ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من المسجد؛ لأنَّه جاء إليه أول مرة فجلس إليه فتكلم في العلم، والشَّيخ لا يعرف من هو هَٰذَا الطالب، فقال له مباشرةً: إن كنت ذا علم فلا تحضر مجلسنا، ٱذهب جزاك الله خيرا، نحن عندنا درس فامْشِ.

فخرجَ ذَٰلِكَ الرَّجل؛ لأنَّه عرف أن الشيخ غضب، لكِنَّه ٱنتظر خارج المسجد حتَّى خرج الشيخ، فقبَّل رأسه وٱعتذر وقال: أنا فلان، وأنا حضرت عند فلان وفلان وفلان، وأريد أن أحضر عندكم، قال: حياك الله، لَٰكِن يا ولدي، إذا جئت مجلس علم فلا تتكلم فيه والناس لا تعرفك حتى لا يسيئون الظن بك.

فلمَّا كانوا هكَذَا ٱنتفع النَّاس، ولمَّا صار الآن لا يبالون بتأديب المتعلم، ويقولون: ينبغي أن ترفق بالناس؛ ليس الرِّفق هو الضَّعف، بل من الرِّفق أحيانًا الدَّواء المرُّ، فالطبيب يعطي أحيانًا المريضَ دواءًا مرًّا لأنَّه يرفق به، ولذَٰلِكَم سُمِّي الطبيب رفيقًا؛ لأنَّه يرفق، فالطبيب يُسمى (طبيبًا) ويُسمى أيضًا (رفيقًا).

فينبغي أن يكون المتعلِّم عارفًا بهَٰذَا، وإذا وقع من معلِّمه زجرٌ له يعرف أنَّ المراد هو منفعتُه، ليس هو منفعة المعلِّم، فإذا تركك المعلم في سهوك ولهوك وخطئك رجع عليك هَٰذَا بالضرر، لكِنَّ المعلِّم إذا دلَّك على ما ينفعك فاعرف أنَّه ينفعك.

ولذَٰلِكَ كان المعلمون النَّابغون يدلُّون الناس على الخير، فمنهم مَنْ ينتفع بتلك الدِّلالة، ومنهم مَنْ لا ينتفع بتلك الدِّلالة، لأنَّه لا يأبه بها ولا يقيم لها وزنًا.

ذَكَرَ الشَّيْخُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ آلِ الشَّيْخِ أَنَّهُ حَضَرَ مَرَّةً عِنْدَ شَيْخِنَا فَهْدُ بْنُ حُمَيِّنٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَسَأَلَهُ قَوْمٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِوَلِيِّ الأَمْرِ، فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: لَيْسَ لَنَا رَأْيٌ فِيهَا، أَوْ نَحْوَ هٰذِهِ الكَلِمَةِ، فَلَم يُجِبْهُمْ عَلَى مَا يُرِيدُونَ، فَلَمَّا خَرَجُوا سَأَلَهُ الشَّيْخُ صَالِحُ: لِمَاذَا أَجَبْتَهُمْ هٰكَذَا؟، قَالَ: لِأَنِّي إِنْ أَجَبْتُهُمْ بِشَيْءٍ ٱتَّخَذُوهُ سُخْرِيًّا، فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ هٰذَا الجَوَابَ، وَإِنْ قَابَلْتُهُمْ بِغَيْرِهِ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، فَقُلْتُ: هٰذَا الجَوَابُ يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُهُمْ، سَوَاءٌ ٱنْتَفَعُوا هُمْ أَمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا فهٰذَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ، فَانْتَفَعَ الشَّيْخُ صَالِحُ؛ حَيْثُ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى جَوَابَ شَيْخِهِ لَهُمْ عَلَى هٰذِهِ الصُّورَةِ، وَتَعَامُلَهُ مَعَهُمْ عَلَى هٰذِهِ الحَالِ، سَأَلَهُ لِمَاذَا؟، حَتَّى يَسْتَعْمِلَ هٰذَا الأَدَبَ الَّذِي رَآهُ مِنْ شَيْخِهِ مَعَ المُتَعَلِّمِينَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فيمن يتجدَّد مِمَّنْ يُحَاكِيهِمْ فِي فِعْلَتِهِمْ. و هٰذَا كثير ممَنْ يلاحظ هٰذَا عند العلماء ويتفطن له.

ثم قال بعد ذَٰلِكَ: (وَقَدْ يُزْجَرُ المُتَعَلِّمُ بِعَدَمِ الإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ إِجَابَتِهِ، فَالسُّكُوتُ جَوَابٌ؛ قَالَ الأَعْمَشُ)، فأحيانًا قد تسأل شيخك سؤالا ولا يجيبك؛ لأنَّ سكوته جواب، فيرى أن الأنفع لك أن يسكت ولا يجيبك عن هٰذَا السؤال.

قال: (وَرَأَيْنَا هَذَا كَثِيرًا مِنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّيُوخِ؛ مِنْهُمُ العَلَّامَةُ ٱبْنُ بَازٍ، فَرُبَّمَا سَأَلَهُ سَائِلٌ عَمَّا لَا يَنْفَعُهُ) – يعني: لا ينفع السائل – (فَتَرَكَ الشَّيْخُ إِجَابَتَهُ، وَأَمَرَ القَارِئَ أَنْ يُوَاصِلَ قِرَاءَتَهُ، أَوْ أَجَابَهُ بِخِلَافِ قَصْدِهِ)؛ يعني: أجابه بجوابٍ يخالف قصْد السائل؛ فسُئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرَّةً في أيام ٱنعقاد ما يُسمى بـ(مهرجان الجنادرية)، قال له أحدهم: أحسن الله إليكم، ما حُكم الغناء في الجنادرية؟، وكان السائل يقصد عيب هٰذَا المهرجان، وأن يوجِّه الشَّيخ كلامه إليه، فقال له الشيخ: الغناء حرام في الجنادرية وغير الجنادرية؛ حتَّى لا يُظَنَّ أنَّ الجواب لأجل هٰذَا الأمر فقط، فذَٰلِكَ الَّذي سأل يشتهي أن يسمع كلامًا في التَّنفير عن هٰذَا وعيبه وثلبه ببيان

حُكم الغناء، فأجابه الشَّيخ بما يدل على حُرمته سواءً كان في الجنادرية أو في غير الجنادرية، وهَٰذِهِ هي نظرة العالم الكامل الَّذي يطلب حق الله عَزَّوَجَلَّ، فالحُكم عنده واحدٌ لا يختلف، سواء كان مع فلان أو كان مع فلان، لأنك تجد بعض الناس الآن إذا وقع إنسان في خطإ فيجعله خطأً ويجمعُ عليه خَيْلَه ورَجْلَه، ويقع هَٰذَا الخطأ نفسه من آخر فتجده لا يبالي به، فلماذا الوزن بميزانين؟!؛ ماهو إلَّا لضعف الدين في قلب العبد، وإلَّا فالعبد كامل العبوديَّة يجعل الناس جميعًا على معيار الشَّريعة، ولا يجعل لهَٰذَا معيارا ولهَٰذَا معيارا.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ الثَّامِنَ عَشَرَ
التَّحَفُّظُ فِي مَسْأَلَةِ العَالِمِ

فِرَارًا مِنْ مَسَائِلِ الشَّغْبِ، وَحِفْظًا لِهَيْبَةِ العَالِمِ؛ فَإِنَّ مِنَ السُّؤَالِ مَا يُرَادُ بِهِ التَّشْغِيبُ وَإِيقَاظُ الفِتْنَةِ وَإِشَاعَةُ السُّوءِ، وَمَنْ آنَسَ مِنْهُ العُلَمَاءُ هَذِهِ المَسَائِلَ لَقِيَ مِنْهُمْ مَا لَا يُعْجِبُهُ، كَمَا مرَّ مَعَكَ فِي زَجْرِ المُتَعَلِّمِ، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّحَفُّظِ فِي مَسْأَلَةِ العَالِمِ، وَلَا يُفلِحُ فِي تَحَفُّظِهِ فِيهَا إِلَّا مَنْ أَعْمَلَ أَرْبَعَةَ أُصُولٍ:

أَوَّلُهَا: الفِكْرُ فِي سُؤَالِهِ لِمَاذَا يَسْأَلُ؟، فَيَكُونُ قَصْدُهُ مِنَ السُّؤَالِ التَّفَقُّهُ وَالتَّعَلُّمُ، لَا التَّعَنُّتُ وَالتَّهَكُّمُ؛ فَإِنَّ مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ فِي سُؤَالِهِ يُحْرَمُ بَرَكَةَ العِلْمِ، وَيُمْنَعُ مَنْفَعَتَهُ.

الأَصْلُ الثَّانِي: التَّفَطُّنُ إِلَى مَا يَسْأَلُ عَنْهُ، فَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ؛ إِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِكَ، أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَى المَسْأَلَةِ نَفْسِهَا.

وَمِثْلُهُ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ، أَوْ مَا لَا يُحَدَّثُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُخَصُّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ.

الأَصْلُ الثَّالِثُ: الانْتِبَاهُ إِلَى صَلَاحِيَّةِ حَالِ الشَّيْخِ لِلإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ، فَلَا يَسْأَلُهُ فِي حَالٍ تَمْنَعُهُ؛ كَكَوْنِهِ مَهْمُومًا، أَو مُتَفَكِّرًا، أَو مَاشِيًا فِي طَرِيقٍ، أَوْ رَاكِبًا سَيَّارَتَهُ، بَلْ يَتَحَيَّنُ طِيبَ نَفْسِهِ.

الأَصْلُ الرَّابِعُ: تَيَقُّظُ السَّائِلِ إِلَى كَيْفِيَّةِ سُؤَالِهِ، بِإِخْرَاجِهِ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ مُتَأَدِّبَةٍ، فَيُقَدِّمُ الدُّعَاءَ لِلشَّيْخِ، وَيُبَجِّلَهُ فِي خِطَابِهِ، وَلَا تَكُونُ مُخَاطَبَتُهُ لَهُ كَمُخَاطَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَخْلَاطِ العَوَامِّ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**التَّحَفُّظُ فِي مَسْأَلَةِ العَالِمِ**) - أي: طلبُ الصِّيانة وحِفْظ النَّفس فيها.

والحامل على ذَٰلِكَ التَّحفُّظ هو الفرار من مسائل الشَّغْب؛ - والشَّغْب: تهييج الشَّر وتحريكه -، فالعبد يَتحَفَّظُ في سؤاله لئلَّا يبادر إلى سؤالٍ يتولَّد منه شرٌّ.

ثم ذكر أن التحفظ في مسألة العالم يكون بإعمال (أَرْبَعَةِ أُصُولٍ):

(أَوَّلُهَا: الفِكْرُ فِي سُؤَالِهِ لِمَاذَا يَسْأَلُ؟)؛ فهو ينظر في سؤاله الَّذي يسوقه؛ لأيِّ شيءٍ يسأل؟، قال: (فَيَكُونُ قَصْدُهُ مِنَ السُّؤَالِ التَّفَقُّهُ وَالتَّعَلُّمُ، لَا التَّعَنُّتُ وَالتَّهَكُّمُ)، فهو يطلب أن ينال بسؤاله فقهًا وعلمًا، وليس مرادُه إلجاءُ العالم إلى العنتِ - وهو الضِّيق والحرج -، ولا السُّخرية به - وهي المرادة بالتَّهكم.

قال: (فَإِنَّ مَنْ سَاءَ قَصْدُهُ فِي سُؤَالِهِ يُحْرَمُ بَرَكَةَ العِلْمِ، وَيُمْنَعُ مَنْفَعَتَهُ)؛ فسيِّء القصْد فيما يبدر منه من أسئلةٍ يلقيها يريد بها مقاصدَ خفيَّةً يُحرَم بركةَ العلم، ولا تصلُ إليه منفعتُه.

و(الأَصْلُ الثَّانِي: التَّفَطُّنُ إِلَى مَا يَسْأَلُ عَنْهُ، فَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَا نَفْعَ فِيهِ)، وهَٰذَا الذي لا نفْع فيه (إِمَّا بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِكَ)؛ أي: بكون السؤال عن هَٰذَا لا نفع فيه بالنظر إلى حالك؛ كالمسألة السابق ذِكْرها عن حُكم التدخل الروسي في سوريا، فإنَّ هَٰذِهِ المسألة ليست نافعة لك في حالك، فلستَ ممَّنْ يشتغل بتدبير الأمور أمرا ونهيا، إحكامًا وردًّا.

قال: (أَوْ بِالنَّظَرِ إِلَى المَسْأَلَةِ نَفْسِهَا)؛ بأن تسأل عن مسألة لا نفْع فيها؛ كأن يسأل سائل عن ماء طوفان نوح؛ هل كان عذْبًا أو كان مالحًا؟، فهٰذا مما لا نفع للسائل فيه.

قال: (وَمِثْلُهُ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ، أَوْ مَا لَا يُحَدَّثُ بِهِ كُلَّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يُخَصُّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ)؛ فإنَّ من العلم ما يُجعَل لخاصَّةٍ من النَّاس دون غيرهم، وذَٰلِكَ التَّخصيص ليس منشؤه أحسابهم وأنسابهم أو أموالهم. كلَّا؛ ولَٰكِن منشؤه موافقتُه مداركَهم، فـ«إنَّك لستَ

بمُحدِّثٍ قومًا حديثه لا تبلغه عقولهم؛ إلَّا كان لبعضهم فتنةً»، كما قال ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنَّ المتكلِّم بالعلم ينظر في منفعةِ كلامه إلى مَنْ يلقي إليهم العلم، فإنَّه ربما تكلم بكلام لا يفهمه بعضهم، فيكون فتنةً لهم، فيكون مقتضى نفْع الخلق فيه أن يُخَصَّ به قوم دون قوم باعتبار صلاحيَّة مداركهم له.

ولذَٰلِكَ كان المتعلِّمون فيما سبق عند العلماء لا يُنَزَّلون منزلةً واحدةً، بل منهم مَنْ يصلح له هَٰذَا المجلس، ومنهم مَنْ لا يصلح له هَٰذَا المجلس، وتكون لهم مجالس يختصُّون بها من شاءُوا لقوَّة مداركهم في العلم.

قال: (الأَصْلُ الثَّالِثُ: الانْتِبَاهُ إِلَى صَلَاحِيَّةِ حَالِ الشَّيْخِ لِلإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِهِ) -أي: يتنبَّه إلى كون حال الشَّيخ تصلح لأن يجيب عن سؤاله -، (فَلَا يَسْأَلُهُ فِي حَالٍ تَمْنَعُهُ؛ كَكَوْنِهِ مَهْمُومًا، أَو مُتَفَكِّرًا، أَو مَاشِيًا فِي طَرِيقٍ، أَوْ رَاكِبًا سَيَّارَتَهُ، بَلْ يَتَحَيَّنُ طِيبَ نَفْسِهِ)، فينظر إلى المواقع الَّتي تصلح للسُّؤال فيسأله فيها، فإذا رآه مهمومًا لشيء أصابه، أو رآه متأمِّلًا متفكِّرا - كأن يتكلَّم في مسألة في العلم ثم يتأمل -؛ فلا ينبغي أن تقطع تأمُّله بإلقاء السؤال عليه، أو تجده مشغولًا بطلب شيء - بالمشي في طريق، أو راكبًا سيارته -، بل ينبغي أن تتطلَّبَ الأوقاتَ الحسنةَ التي تكون نفسُه طيِّبةً فيها، فتلقي عليه تلك الأسئلة.

قال: (الأَصْلُ الرَّابِعُ: تَيَقُّظُ السَّائِلِ إِلَى كَيْفِيَّةِ سُؤَالِهِ) - يعني: أن يكون يقظًا في كيفية السؤال -، (بِإِخْرَاجِهِ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ مُتَأَدِّبَةٍ، فَيُقَدِّمُ الدُّعَاءَ لِلشَّيْخِ، وَيُبَجِّلَهُ فِي خِطَابِهِ)، فيقول: أحسن الله إليكم، داعيًا له، ويخاطبه بما يدلُّ على تعظيمه، يقول: أحسن الله إليكم شيخنا، ثم يورِد سؤاله، (وَلَا تَكُونُ مُخَاطَبَتُهُ لَهُ كَمُخَاطَبَتِهِ أَهْلَ السُّوقِ وَأَخْلَاطِ العَوَامِّ)؛ يعني تجدُه في خطابه له فيه نَزَقٌ وشدَّةٌ، ويقع التخاطب معه كما يقع التخاطب بين أوباش النَّاس من الباعة وأخلاط العوام الذين يتكلمون بكلام لا يعدُّونه ولا يتفطنون له، فتجد بعض الطلبة يهجم على الشيخ؛ ما أن يُسلِّم الشيخ - كأن يكون إمامًا - من الصلاة ويقبل

على الناس يقول: (أستغفر الله وأتوب إليه، أستغفر الله وإليه وأتوب إليه، أستغفر الله وأتوب إليه، اللّٰهمَّ أنت السلام ومنك السلام) إلا وأحدهم يبادرك ويسألك؛ هَٰذَا وقع لي وليس ضربًا من الخيال، وهَٰذَا ليس موقع سؤال، وتجده يلقي السؤال عليك بلا ٱستئذانٍ، لا يقول: أحسن الله إليك، عندي سؤال ضروري، لا. تجده مباشرةً يسأل السؤال، فالشيخ ولوِ ٱحتملَ قَطْعَه له لذِكْرِه؛ يشقُّ عليه أن يحتمل سوء أدبه بإلقائه الكلام كيفما ٱتَّفق، والإنسان ينبغي له أن يتأدَّب في العلم حتَّى يأخذ العلم، فالعالم صاحب العلم لا يرضى بأن لا يبالي الناس في العلم، إذا كنتَ أنتَ تحفظه أموالك وتحسبها، ولا ترضى أن يأخذ أحد منها شيئا بدون حقٍّ، فإذا كان هَٰذَا حال الناس في أموالهم، فالدِّين أشد.

وقد حَدَّثَنِي أَحَدُ الإِخْوَانِ - وَلَمْ أَكُنْ حَاضِرًا - عَنْ شَيْخِنَا عَبْدِ اللهِ ٱبْنِ عَقِيلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ إِلَى مَجْلِسِهِ لِيَقْرَأَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ، أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ، قَالَ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَ؟، قَالَ: «أَخْصَرَ المُخْتَصَرَاتِ»، فَقَالَ - وَكَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رَفِيقًا جِدًّا مَعَ كَمَالِ حَزْمِهِ -: ٱقْرَأْ. قَالَ الرَّجُلُ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، قَالَ المُصَنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كِتَابُ الطَّهَارَةِ)، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: أَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ قَبْلَهُ يَا وَلَدِي؟، قَالَ: لَا يَا شَيْخُ، أَوَّلُ شَيْءٍ: (كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ المِيَاهِ)، فَقَالَ الشَّيْخُ: لَا، أَنَا عِنْدِي قَبْلَهُ: (مُقَدِّمَةٌ...)، قَالَ: يَا شَيْخُ؛ هٰذِهِ مُقَدِّمَةٌ سَهْلَةٌ وَاضِحَةٌ، نَبْدَأُ بِالفِقْهِ، قَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَنْبَغِي أَنْ تَقْرَأَ الكِتَابَ مِنْ أَوَّلِهِ حَتَّى تَسْتَفِيدَ، قَالَ: يَا شَيْخُ؛ أَنَا واللهِ أَوْقَاتِي ضَيِّقَةٌ، وَمُنْذُ مُدَّةٍ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ لٰكِنْ لَمْ يَتَيَسَّرْ لِي، وَالآنَ ٱتَّفَقَ أَنِّي صَلَّيْتُ عِنْدَكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ، وَبِوُدِّي أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنَ الوَقْتِ!. قَالَ الشَّيْخُ: يَا وَلَدِي؛ ٱذهب، وَإِذَا ٱتَّسَعَ وَقْتُكَ تَأْتِينَا وَتَقْرَأُ «أَخْصَرَ المُخْتَصَرَاتِ» مِنْ أَوَّلِهِ. فَذَهَبَ وَمَا قَرَأَ عَلَيْهِ أَبَدًا.

فهٰذا هو إكرام العلم وحفظه، فلأنَّه لم يأخذِ العلم بحقِّه فلا بد أن يُعامَل بما يؤدبه.

وكذَٰلِكَ السَّائل الذي لا يخاطِب أهل العلم بما ينبغي من مخاطبتهم ينبغي له أن يُؤدَّب، والعلماء يفرقون بين سؤال العامِّيِّ وبين سؤال ملتمس العلم، فالعامِّيُّ له حال، وملتمس العلم له حال، لذَٰلِكَ الشيخ محمد ٱبن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان بعد العصر يذكر أذكاره ويأتيه الناس العوام من خارج عنيزة، فهَٰؤُلَاءِ يجعلهم يسألون، أمَّا طالب العلم فلا يسمح له، بل يقول له: أنت تسأل في الدرس، لا تسأل هنا، هذا مُعدٌّ للعوامِّ ولا يُسمَح لغيرهم.

فمرة رأيتُ أحد العامَّة لم يقتدِ بطريقة الشيخ أنهم يجلسون على يمينه ينتظرون واحدا واحدا ويسألون بعد ذَٰلِكَ إذا فرغ من أذكاره، فجاء وهجم على الشيخ مباشرةً، فزجره الشيخ وقال له: ٱجلس في مكانك مع النَّاس؛ لأنَّ الإنسان إذا لم تأدِّب يُؤدَّب حتى ينتفع، وإلا أن يُجعَل العلم لا جنابَ له ولا حِفْظَ فهٰذا من أسباب ذهاب العلم، لماذا الناس الآن يطلبون العلم خمس وست سنوات، ولا يفلحون؟؛ لأنَّهم لم يأخذوا بحقه ،لَكِن إذا أُخِذوا بحقِّه ينتفعون في مدَّةٍ يسيرةٍ.

ومن اللَّطائف أنَّ الشَّيخ محمَّد ٱبن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يعتني بالطَّلبة، فيوقظ النَّائم يوقظه، و يُنبِّه الغافل، والذي يقع منه سوء أدب يردُّه، فأحد أصحابنا ممَّنْ كان يحضر دروسه بلغ به الحال كما يقول لي: مرَّةً وأنا في السيارة وأسمع درسا للشيخ، يقول: وكنت أفعل بلحيتي هكَذَا، وإذا بالشيخ يقول: لا تعبث بلحيتك!!، يقصد الشيخ أحد الجالسين، يقول صاحبنا: وكأنه يخاطبني.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المعْقدُ التَّاسِعَ عَشَرَ
شَغَفُ القَلْبِ بِالعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عليه

فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، وَتَعَلُّقَ القَلْبِ بِهِ، وَلَا يَنَالُ العَبْدُ دَرَجَةَ العِلْمِ حَتَّى تَكُوْنَ لَذَّتُهُ الكُبْرَى فِيهِ.

وَإِنَّمَا تُنَالُ لَذَّةُ العِلْمِ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ، ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ الله ٱبْنُ القَيِّمِ:

أَحَدُهَا: بَذْلُ الوُسْعِ وَالجَهْدِ.

وَثَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ.

وَثَالِثُهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالإِخْلَاصُ.

وَلَا تَتِمُّ هَٰذِهِ الأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَعَ دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ القَلْبِ.

إِنَّ لَذَّةَ العِلْمِ فَوْقَ لَذَّةِ السُّلْطَانِ وَالحُكْمِ الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَتُبْذَلُ لِأَجْلِهَا أَمْوَالٌ وَفِيرَةٌ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ غَزِيرَةٌ.

وَلِهَٰذَا كَانَتِ المُلُوكُ تَتُوقُ إِلَى لَذَّةِ العِلْمِ، وَتُحِسُّ فَقْدَهَا، وَتَطْلُبُ تَحْصِيلَهَا.

قِيلَ لِأَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ - الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ المَشْهُورِ الَّذِي كَانَتْ مَمَالِكُهُ تَمْلَأُ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ -: هَلْ بَقِيَ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَمْ تَنَلْهُ؟، فَقَالَ - وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَسَرِيرِ مُلْكِهِ -: «بَقِيَتْ خَصْلَةٌ: أَنْ أَقْعُدَ عَلَى مِصْطَبَةٍ، وَحَوْلِي أَصْحَابُ الحَدِيثِ - أَيْ طُلَّابُ العِلْمِ -، فَيَقُولُ المُسْتَمْلِي: مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ اللهُ؟».

يَعْنِي: فَيَقُولُ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، قَال: حَدَّثَنَا فُلَان، وَيُسُوقُ الأَحَادِيثَ المُسْنَدَةَ.

وَمَتَى عُمِرَ القَلْبُ بِلَذَّةِ العِلْمِ سَقَطَتْ لَذَّاتُ العَادَاتِ وَذَهَلَتِ النَّفْسُ عَنْهَا، بَلْ تَسْتَحِيلُ الآلَامُ لَذَّةً بِهَٰذِهِ اللَّذَّةِ.

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف وفَّقه الله معقدًا آخرًا من معاقد تعظيم العلم؛ وهو: (**شَغَفُ القَلْبِ بِالعِلْمِ وَغَلَبَتُهُ عَلَيْهِ**) أي: شدَّة محبته، وشغف القلب: بلوغ المحبَّة شِغَافَ القلب - يعني: باطنه -، فمن تعظيم العلم أن تقوى محبَّة القلب له حتى تغلب عليه.

قال: (فَصِدْقُ الطَّلَبِ لَهُ يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ، وَتَعَلُّقَ القَلْبِ بِهِ، وَلَا يَنَالُ العَبْدُ دَرَجَةَ العِلْمِ حَتَّى تَكُوْنَ لَذَّتُهُ الكُبْرَى فِيهِ).

ثمَّ ذكر ما تُنال به لذة العلم، وهو (ثَلَاثَةُ أُمُورٍ، ذَكَرَهَا أَبُو عَبْدِ الله ٱبْنُ القَيِّمِ) في «مفتاح دار السَّعادة»:

(أَحَدُهَا: بَذْلُ الوُسْعِ وَالجَهْدِ)؛ أي: في طلبه وتحصيله، فيبذل طاقته وقدرته في طلب العلم؛ كجلوسنا مدَّةً طويلةً في هَذَا المجلس، فإنَّ هَذَا من صِدق المحبَّة، بأن يبذل وُسعه وجهده، وإذا أردت أن تعرف كم تستطيع أن تجلس في مجلسٍ فانظر إلى مجالس المؤانسة التي تجلس فيها من بعد صلاة العشاء إلى الساعة الثَّانية عشر أو السَّاعة الواحدة، حتَّى تعرف مقدار ما ينبغي أن تكون عليه محبَّة قلبك للعلم حتَّى تصدق فيه.

قال: (وَثَانِيهَا: صِدْقُ الطَّلَبِ)، بأن يتوجَّه إليه توجُّهًا كاملًا؛ فلا يشغله عنه شيءٌ.

(وَثَالِثُهَا: صِحَّةُ النِّيَّةِ وَالإِخْلَاصُ)؛ بأن يُصحِّح نيَّته في طلبه، ويُصفِّيَ قلبَه في أخْذه.

وتقدَّم أنَّ **النِّيَّة** شرعًا هي: إرادة القلب العمل تقرُّبًا إلى الله، وأن **الإخلاص** شرعًا هو: تصفية القلب من إرادة غير الله. فالإخلاص هو الصِّفة الشَّرعية للنِّيَّة.

ثمَّ قال: (وَلَا تَتِمُّ هَذِهِ الأُمُورُ الثَّلَاثَةُ إِلَّا مَعَ دَفْعِ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنِ القَلْبِ).

ثمَّ قال: (إِنَّ لَذَّةَ العِلْمِ فَوْقَ لَذَّةِ السُّلْطَانِ وَالحُكْمِ الَّتِي تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا نُفُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَتُبْذَلُ لِأَجْلِهَا أَمْوَالٌ وَفِيرَةٌ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ غَزِيرَةٌ)؛ فلذَّة العلم فوق أعظم لذَّةٍ يعدُّها النَّاس، وهي لذَّة الولاية في السَّلطنة والحُكم، فإنَّ الملوك الَّذين بلغوها كانوا يتأسَّفون على فوات لذَّة

العلم، كما في خبر(أَبِي جَعْفَرٍ المَنْصُورِ) - وهو مَنْ هو في المُلك والحُكم - أنَّه قيل له: (هَلْ بَقِيَ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَمْ تَنَلْهُ؟، فَقَالَ - وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَسَرِيرِ مُلْكِهِ -: «بَقِيَتْ خَصْلَةٌ: أَنْ أَقْعُدَ عَلَى مِصْطَبَةٍ) - أي: مكانٍ مرتفعٍ؛ كالكرسيِّ والدُّكَّان؛ فهٰذِهِ أسماءٌ للأماكن المرتفعة -، (وَحَوْلِي أَصْحَابُ الحَدِيثِ - أَيْ طُلَّابُ العِلْمِ -، فَيَقُولُ المُسْتَمْلِي مَنْ ذَكَرْتَ رَحِمَكَ اللهُ؟»)؛ **والمستملي**: ٱسمٌ لِمَنْ يستدعي حديث المُحدِّث بقوله: (مَنْ ذكرتَ رحمك الله؟)، فالمستملي يجلس بين يدي المحدِّث فيقول له: (مَنْ ذكرتَ رحمك الله؟)، فيقول: (حدَّثنا فلانٌ، قال: حدَّثنا فلانٌ)، حتَّى يُتمَّ، ثم يبلغ عنه ويعيد (مَنْ ذكرتَ رحمك الله؟)، حتَّى يُكمِل مجلسه.

قال: (يَعْنِي: فَيَقُولُ: حَدَّثَنَا فُلَانٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا فُلَان، وَيُسُوقُ الأَحَادِيثَ المُسْنَدَةَ).

قال: (وَمَتَى عُمِرَ القَلْبُ بِلَذَّةِ العِلْمِ سَقَطَتْ لَذَّاتُ العَادَاتِ وَذَهَلَتِ النَّفْسُ عَنْهَا)؛ أي: إذا قويت لذَّة العلم في القلب؛ فاللَّذات التي ٱعتادها النَّاس في الأكل والشُّرب والنَّوم تذهل النَّفس عنها، والنَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ٱبتدأ طلب العلم بقي أربع سنين لا ينام إلا ٱتِّكاءً؛ يعني: يلقي وسائدَ يتَّكئ عليها، فيغفو ثمَّ يستيقظ، فعل هٰذَا أربع سنين!! لأن محبَّة العلم غلبت على قلبه، فتلك اللَّذات التي ٱعتادها الناس لم يعد لها طعمٌ عنده.

ومثله الطَّعام؛ فتجد المشتغل بالعلم ربَّما غفل عن لذَّة الطعام، وقد لقيت رجلًا خدم العلَّامة حافظًا الحكميَّ عدة سنين، فسألتُه عن أحوال الشيخ حافظ، فذكر لي أنَّه كان ربما يأتي له بالطعام، يقول: وأنتظر عنده رجاءَ أن أصيب من الطَّعام - لأنَّ الطعام كان قليلًا في النَّاس -، يقول: فيبقى الطَّعام مدَّة طويلة وهو يقرأ في الكتب لا يلتفت إليه، فإذا طال الوقت زمانًا طويلًا قلتُ له: الطعام أحسن الله إليك، فيقول لي بعد ذَٰلِكَ: كُلْ أنت، فأنا لا أريد أن آكل، فآتي إلى الطَّعام وإذا هو قد برد فلا أنتفع به كثيرًا.

فانظر إلى أنَّه غفل عن الطعام أوَّلا، ثم بعد ذَٰلِكَ لم يطلبه بلِ ٱنصرف عنه؛ لأنَّ محبَّة العلم

غلبت على قلبه، فلا يجد لذَّةً إلَّا في هَٰذَا الأمر.

قال: (بَلْ تَسْتَحِيلُ الآلَامُ لَذَّةً بِهَٰذِهِ اللَّذَّةِ)؛ يعني: الآلام التي يلاقيها الإنسان إذا تمكنت لذَّة العلم في قلبه تتحول إلى لذَّةٍ، فمثلا: ألم المشي في العلم، قد تمشي للوصول إلى شيخ ساعات على قدميك، هَٰذِهِ الآلام الَّتي يجدها الناس هي عندك لذة؛ لشدة محبتك للعلم، تجد بعض الناس مهما بلغ به المرض لَٰكِن يرى أنَّ العلم يخفِّف عنه، فأنت الآن إذا جئتَ إلى مريضا ٱشتدَّ به المرض وأحدثتَ عنده صوت يتضجر عادةً، لَٰكِن هَٰذَا الألم الَّذي يتضجَّر منه النَّاس قد يكون عند بعض النَّاس لذَّةً.

كان أحد المشايخ - وتُوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى وقد جاوز المائة لما توفي - مقرئا للقرآن، فأصيب بمرض شديد، فكان يوصي أولاده وأهلَه أنَّه مهما بلغ به المرض فلا يمنعوا أحدا أن يقرأ عنده القرآن، يقول: يكون رقيةً لي، مهما بلغ بي من الألم فإن سماع القرآن يخفِّف عني، فمات رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يُقرأ عليه، وطلَّابه حرصوا على أن يلازموه مع شدَّة مرضه لمَّا رأوا محبَّته له.

فهٰذا الصَّوت عادةً يؤلِمُ ويضجِر، لَٰكِن هو يرى أنَّ هَٰذَا الصَّوت الَّذي يسمعه من القرآن - الذي بقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أكثر من ثمانين سنة يُقرئه - من اللَّذَّة، وإن عدَّه النَّاس ألمًا.

قال المصنِّف وفَّقه الله:

المَعْقِدُ العِشْرُونَ
حِفْظُ الوَقْتِ فِي العِلْمِ

قَالَ ٱبْنُ الجَوْزِيِّ فِي «صَيْدِ خَاطِرِهِ»: «يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ، وَقَدْرَ وَقْتِهِ، فَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمَ فِيهِ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ».

وَمِنْ هُنَا عَظُمَتْ رِعَايَةُ العُلَمَاءِ لِلوَقْتِ، حَتَّى قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ البَاقِي البَزَّازُ: «مَا ضَيَّعَتُ سَاعَةً مِنْ عُمُرِي فِي لَهْوٍ أَوْ لَعِبٍ».

وَقَالَ أَبُو الوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ - الَّذِي صَنَّفَ كِتَابَ «الفُنُونِ» فِي ثَمَانِمَائَةِ مُجَلَّدٍ -: «إِنِّي لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أُضَيِّعَ سَاعَةً مِنْ عُمُرِي».

وَبَلَغَتْ بِهِمُ الحَالُ أَنْ يُقْرَأَ عَلَيْهِمْ حَالَ الأَكْلِ، بَلْ كَانَ يُقْرَأُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي دَارِ الخَلَاءِ.

فَاحْفَظْ أَيُّهَا الطَّالِبُ وَقْتَكَ؛ فَلَقَدْ أَبْلَغَ الوَزِيرُ الصَّالِحُ ٱبْنُ هُبَيْرَةَ فِي نُصْحِكَ بِقَوْلِهِ:

وَالوَقْتُ أَنْفَسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ ... وَأَرَاهُ أَسْهَلَ مَا عَلَيْكَ يَضِيعُ

قَالَ الشَّارح وفَّقه الله:

ختم المصنِّف وفَّقه الله معاقد تعظيم العلم بالمعقد المُتِمِّ العشرين؛ وهو: (**حِفْظُ الوَقْتِ فِي العِلْمِ**)؛ لأنَّ الوقت هو ظرف زمان الأعمال، فالعلم لا يُدرَك ولا يُنال إلا بحفظ ظرفه من الزَّمن.

وذكر كلام ٱبن الجوزيِّ: («يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ شَرَفَ زَمَانِهِ، وَقَدْرَ وَقْتِهِ، فَلَا يُضَيِّعُ مِنْهُ لَحْظَةً فِي غَيْرِ قُرْبَةٍ، وَيُقَدِّمَ فِيهِ الأَفْضَلَ فَالأَفْضَلَ مِنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ»).

ثـمَّ قـال: (وَمَـنْ هُنَـا عَظُمَـتْ رِعَايَـةُ العُلَـمَاءِ لِلوَقْـتِ) - أي: اشـتدَّت عنـايتهم بالوقـت، وتعظيمهم له - (حَتَّى قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ البَاقِي البَزَّازُ: «مَا ضَيَّعْتُ سَاعَةً مِنْ عُمُرِي فِي لَهْوٍ أَوْ لَعِبٍ»)؛ أي: لا يحفظ عن نفسه أنه ضيَّع ساعة من عمره فيما يضيع فيه الوقت من اللهو أو اللعب.

(وَقَالَ أَبُو الوَفَاءِ بْنُ عَقِيلٍ - الَّذِي صَنَّفَ كِتَابَ «الفُنُونِ» فِي ثَمَانِمَائَةِ مُجَلَّدٍ -: «إِنِّي لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أُضَيِّعَ سَاعَةً مِنْ عُمُرِي»)؛ أي: لا يرى أنَّ لنفسه حلالًا أن يُضيع ساعة من عمره، فكان يشتدُّ في حفظ وقته.

قـال: (وَبَلَغَـتْ بِهِـمُ الحَـالُ أَنْ يُقْـرَأَ عَلَيْهِـمْ حَـالَ الأَكْـلِ، بَـلْ كَـانَ يُقْـرَأُ عَلَيْهِـمْ وَهُـمْ فِي دَارِ الخَلَاءِ)؛ أي: حفظًا للوقت، فيكون القارئ خارج دارِ الخلاء، ويقرأ العلم على مَنْ بداخله؛ حفظًا للوقت في العلم.

قال: (فَاحْفَظْ أَيُّهَا الطَّالِبُ وَقْتَكَ؛ فَلَقَدْ أَبْلَغَ الوَزِيرُ الصَّالِحُ ابْنُ هُبَيْرَةَ فِي نُصْحِكَ بِقَوْلِهِ:

وَالوَقْتُ أَنْفَـسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ وَأَرَاهُ أَسْهَـلَ مَا عَلَيْـــكَ يَضِيــعُ

(وَالوَقْتُ أَنْفَـسُ مَا عُنِيتَ بِحِفْظِهِ)؛ أي: أشدُّ ما ينبغي أن تعتني بحفظه.

(وَأَرَاهُ)؛ يجوز فيه الضَّمُّ والفتح، فـ(أُراه) - بالضَّـمِّ -؛ أي: أظنُّه، و(أَراه) - بالفتح -؛ أي: أقطع جازمًا جزمًا علميًّا بأنَّ أسهل ما عليك من الضَّياع هو ضياع الوقت.

فطالب العلم ينبغي له أن يحرص على حفظ وقته، فإنَّه لا ينال العلم إلَّا بهَذَا.

ونكـون بـهَذَا قـد ختمنـا هَذَا الكتـاب، والحمـد لله ربِّ العـالمين، وصـلَّى الله وسـلَّمَ على نبيِّنا محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسَيْنِ
لَيلة السّبتِ غُرَّة شَهْرِ المُحَرَّم
سَنَةَ سَتٍّ وَثَلاثِينَ بَعْدَ الأَرْبَعمِائَةِ وَالأَلْفِ
فِي مَسْجِدِ مُصعب بن عُميْرٍ بِمَدِينَةِ الرِّياض